

الأعمال النثرية (٧)

رائحة الخوف

مجموعة قصصية

دكتور

عبد الحميد محمد بدوران

شركة M.M.E.A.D للطبع والنشر والتوزيع

مطابعات محمد دحروج - جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب / رائحة الخوف
اسم المؤلف / د. عبد الحميد بدران
تصميم الغلاف / فاطمة وداد . الدار البيضاء
المراجعة والإخراج الفني/ محمد محمود السيّد
رقم الإيداع: ١٤٧٩٠/١٤٢١/٢٠٢١م
تاريخ الحصول على رقم الإيداع: ١٤/٦/٢٠٢١م
الترقيم الدولي: ٨-١٤٤-٩٩٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى 2021

رائحة الخوف

مجموعة قصصية

الناشر

ببلوماتيا وشركة M. M. E. A. D ودار

شركة M.M.E.A.D للطبع والنشر والتوزيع
مطبوعات محمد دحروج - جمهورية مصر العربية



ببلوماتيا للنشر والتوزيع
BBLUMATIA PUBLISHING

مُقَدِّمَةٌ

هل لي الآن أن أكتب عن الكتابة ؟ ذلك المصطلح
المراوغ الذي نملكه ولا نملكه، ونحبه ولا نعرف لماذا
نحبه، وننتظره بشغف كما ننتظر الوعد، لكننا لا ندري
متى يطرق أبوابنا .

ربما كانت الكتابة تسرية عن النفس، وربما كانت
سباحة من أجل الوصول إلى المثال الذي عز وجوده،
والجمال الذي يأسر النفس جديده، وكلما اختلفت المداخل
والمخارج كلما تميز كاتب عن كاتب، وارتفعت كتابة عن
كتابة، ربما كان كل ذلك صحيحا وربما لا، لكن الكتابة
تظل منتجا يمكن الرجوع إليه والتعويل عليه في دراسة
الجو النفسي لكاتب النص، والوصول إلى المؤثرات
الحقيقية التي أنتجت النص، والمخاضات الكبرى التي
استهل النص صارخا على يديها، شريطة أن يدرك
المحلل النفسي أن بين الكاتب والمريض النفسي مسافة،
عليه أن يظل حريصا على إدراك أبعادها، حرصه على

الشعرة التي يريد لها ألا تنقطع، فهذه المسافة هي التي تحفظ الصراع المتوتر بين العقل والعاطفة، وهي التي تضمن استمرار الحياة بين الزوج وزوجه، وهي التي تقف حائط صد بين المعارضين والمؤيدين، وهي التي تضمن للكاتب نجاحاته في فهم النفس، والتنبؤ بتقدمها أو انتكاسها، وكلما ظل الكاتب رساما يبحث عن مواطن الضوء والظل، كلما كان أقدر على إقناعنا بما يجسد من مشاهد، وكلما ظل الكاتب طفلا محتالا بين يدي أمه، كلما كان في أعين الحالمين بالجمال مثالا في طهر الفطرة ونقاء السريرة، فإذا لم يكتب الكاتب ما أوحى به النفس ضاقت المداخل، وطمست المخارج، واكتأبت النفس، وعبست الوجوه.

لقد قالوا لنا فيما قالوا : إن الكتابة هي التعبير عن الأفكار والعواطف والانفعالات، بأسلوب يحدث في النفس أثرا، لكنهم لم يقولوا لنا كيف تفعل الكتابة بالنفس مفعول السحر، وكيف توجهها إلى ما تريد دون مقاومة؟

وهل هي مهارة يمكن أن يكتسبها كل من أجاد الإمساك
بالقلم ؟ أم أنها ملكة فنية رشحتها الوراثة وفرط الثقة؟

لقد قالوا لنا إن مهمة الأدب تأديب النفس وتهذيبها،
لكنهم لم يخبرونا ان في الكلمات طاقات إبداعية تأمر
وتنتهى، وتطيع وتعصى، وطاقات إيحائية تساعد على
نقل الانفعالات، وتجسيد المعقولات، إذ ليس منا من
يستطيع أن يقف ب(الأم) عند حد الولادة، وبالأخ عند حد
القربة، وليس منا من يستطيع أن يقف بالأسلوب عند حد
الطريقة، وبالألفاظ على مشارف الحقيقة .

لقد قالوا إن للكتابة سلطانا على النفس لكنهم لم يثيروا
إلى المفعول السحري الذي يسمى بالثقّة، ولا إلى الصدق
الذي يلبس الحروف والكلمات ثوب الإحساس، ولا إلى
الدهشة التي تتخدر معها أعصاب المتلقي فتسمح لكل
معنى أن يمر، ولا إلى استحضار الماضي الذي يجعل
النفس في عرض سينمائي مفتوح، لا تود النفس أن
تصحو منه .

لقد حسبوا أنهم قالوا لنا كل شيء، ثم أدركنا بعد حين
أنهم لم يقولوا لنا أي شيء، لقد أدركنا أن الكتابة هي
تسبيحة الحجر، وتعويذة البشر، والدواء الذي لا ينال منه
القدر، فمن يقول لهم: لقد أدركنا الآن أننا نحب الكتابة
لأننا أدركنا أننا نحب ذواتنا .

العدو الصامت

أمسكت بالجريدة أخيرا بعد ثلاثة أعوام من معاداة الجرائد، أخذت أقلبها بين يدي وأحلق فيها وكأنني كنت أسمع عنها في الحكايات التي كان يحكيها لي جدي، لم يختلف شكلها عما كانت عليه يوم كنت أواظب على شرائها مرتين كل أسبوع، نفس الكتابة ونفس التنسيق ونفس الورق الداكن، والبنت العريض الذي يحتاج إلى مزيد من التدقيق و التركيز، لكن الشغف في تصفحها لم يكن على نفس القدر، فقد أصبحت أتصفح الأعداد الإلكترونية يوميا بدلا من أن أشتري عددين كل أسبوع، لكن عيني ما لبثت أن وقعتا على عنوان مثير للغاية، لم أتردد لحظة في الوقوف أمام محتواه .

لقد انصرف ذهني وأنا أطلع العنوان (العدو الصامت) إلى مرض (الضغط) وكيف كان يوصف

بالقاتل الصامت، ولم أنتبه إلى أنها قصة قصيرة إلا عندما تسمرت عيناى أمام قول الكاتب :

(هل كنت مخطئا حين تورطت فى دفع مئتى جنيه شهريا، كانت كفيلة بسداد مصروفات الدروس لطفلى الذى ينهى فصله الأخير فى المدرسة الابتدائية وسط حالة من التحفظ من أجل كورونا ؟، لكننى معذور، فقد مرّت الأحداث فى ذلك اليوم سريعا، فمن السنترال الرئيسى إلى مكتب هندسة الشبكة إلى البيت، يا فرحتى ... فبعد أقل من ساعة أصبحت أمتلك هاتفا أرضيا، لم أستخدمه فى اتصال واحد طيلة ستة أشهر كاملة، وبعد ساعة أخرى كان مسئول الدعم الفنى لشركة الإنترنت يشرف بنفسه على توصيل الخدمة إلى بيتى، بالتأكيد أنا مكسب كبير لهم، وإلا ما سأل فى أحد)

العجيب أن ما يحكيه الكاتب بالضبط هو ما حدث لى، ولكن ما علاقة هذا بالقصة؟، اعتدلت فى جلستى على كنبه الأنتريه وطلبت كوبا من الشاي الساخن من طفلى الصغير، وعيناى تطالع سطور الأعمدة بحثا عن

نهاية القصة، إنها طويلة إلى مدى مزعج لكنني مصمم على الوصول إلى النهاية.

(إنه طفل ذكي ووسيم، لكنه لا يمشي إلا والهاتف في يده أو في جيبه، وكلما طلبت أمه قضاء حاجة للبيت تغل بمغص في أمعائه، أو وجع في عضلات ساقه، حتى يطول وقت استمتاعه بالألعاب، ومتابعة ما يقوله الدحيح، واصحاب الخدع السحرية، لدرجة أنني طلبت منه كوبا من الماء فناولني علبة السجائر، وطلبت والدته قرصا من الدواء فناولني إياه، لكنني تناولت القرص بالفعل، لأنني أحسست أنني بحاجة إلى مسكن آمن في هذا الطقس البارد القاسي)

انتبهت أخيرا إلى أن كوب الشاي لم يأت بعد، وأن طفلي الذي أناديه لم يزل في الحمام منذ عشر دقائق تقريبا، فاضطرت لدخول المطبخ لانتقاذ البراد من الغليان المستمر، وما إن أغلقت شعلة البوتجاز حتى سمعت أصواتا خافتة تنبعث من الحمام، إنها تشبه

الأجراس الخافتة، والهمس لا يكاد يفهم، ناديت طفلي
برفق فانقطع الصوت ورد علي :

(نعم يا بابا ... أنا في الحمام)

وضعت كوب الشاي أمامي برفق، وتابعت قراءة
القصة، كانت خمس دقائق كافية لأن يبرد الشاي في
هذا الجو البارد، وهو ما حدث في الرشفة الأولى، لكن
ما إن وضعت الكوب على شفتي حتى أُلقيت الجريدة،
وصرخت بأعلى صوتي:

(يا ساتر يا رب.....نار ... نار)

أقبل طفلي بسرعة والتقط الكوب من يدي مذعورا :

(فيه إيه يا بابا .. فيه إيه)

كنت أنظر إلى الكوب الذي في يده مندهشا، كنت أسأل
نفسي، هل هذا الكوب هو الذي رشفت منه الرشفة منذ
قليل؟ إن الشاي ساخن جدا، وكل ما أنا على يقين منه
أن فمي قد احترق، ولابد من وضع كيس من الثلج على
شفتي في هذا الجو البارد.

أخذت مكاني مرة أخرى على الأريكة، وأنا أفكر في العدو الصامت والشاي الساخن، وقررت ألا أتابع القصة، لأن يدي ما زالت تحرك قطعة الثلج فوق شفتي برفق، لولا أن عيناوي وقعت على قول الكاتب في المقطع الأخير:

(شب الحريق في البيت، وأكلت النار جزءا كبيرا من المطبخ الخشبي المجاور لها، ومازلنا نبحث عن سبب لذلك دون جدوى)، عندها هرولت في اتجاه المطبخ دون وعي، ورغم يقيني أنني أغلقت شعلته قبل قليل إلا أنني وجدت الشعلة موقدة، والبراد يغلي، وما إن أغلقت الشعلة حتى سمعت نفس الأصوات التي كنت قد سمعتها في المرة الأولى.

(أصوات خافتة تتبعث من الحمام، وهمس لا يكاد يفهم)، ناديت طفلي برفق فانقطع الصوت ورد علي : (نعم يا بابا ... أنا في الحمام)، وكأني كنت أشاهد مقطعا من فيلم سينمائي للمرة الثانية .

اضطرت للنظر من ثقب باب الحمام، فإذا بطفلي
يمسك الجوال ويلعب، تماسكت قليلا ثم عدت إلى
مكاني، وناديته لأساله في هدوء أحسد عليه : أين كوب
الشاي الذي طلبته من ساعة؟، فرد علي ردا أسكتني
بالفعل :

(هو الشاي الذي لسعك يا بابا ... أنت نسيت؟) .

كلبة حمدي

ما الذي جعلني أفضل اختيار الأنثى على الذكر؟، وما الذي جعلني أسمع كلام أطفالها وأقرب هذه الكلبة من بيتي؟، ربما كنت أطمع في ألوان مختلفة من الجراء؟ وربما لأتني كنت أسمع أن الإناث ألطف في التعامل مع أهل البيت؟، المهم أنني اخترتها صفراء الوجه، قصيرة الأذنين، واسعة العينين، لكنني لم أكن أعلم أبدا أنها لا تكف عن الركض والنباح، وأنها ترفض الخطبة والزواج .

كنت أقول في نفسي: تبا لذلك الصديق الذي أهداها لي، لم يكن بيني وبينه من الود ما يستحق أن يهدي لي هدية في حجم هذه الكلبة، فلم أهداها لي؟، إنه يبدو وديعا في الظاهر لكن حمقه أكبر من أن يدل عليه موقف واحد، فمذ أصبح مديرا للمدرسة وهو لا يترك حفلا إلا حضره، ولا وليمة إلا أتى عليها، حتى بدأ يظهر له كرش صغير، كان يجيد إخفاءة بحزام قماشي يشده على بطنه بصورة محكمة .

أصبحت الكلبة في عامين أو ثلاثة أشهر كلبة في المنطقة، ولم يقبلها هدية أي مدرس من مدرسي المدرسة التي أعمل بها، ولم تُفلح هي في لفت أنظار أيّ كلب إليها، وكلما حاولتُ استرضاء أحد الأصدقاء كي يأتي بكلبه لنقربه منها نهزني بشدة، وقال إن كل الكلاب تنفر منها، حتى كلاب البلدة التي أتت منها .

لاحظت منذ أشهر قليلة أنها تنظر إلي بغیظ وحنق وكأنني قتلت أمها، لعلها كانت تشعر أنني أريد أن أتخلص منها، حتى أستريح من ركضها ونباحها المستمرين، وحتى أضمن دخول صديقي الأستاذ محمد بيتي دون حراسة من أولادي، خوفا من مخالبتها الحادة .

كل ما أحفظه لها أنها كانت تحنو على طفليّ الصغیرين، إذ ما يرميان شيئا من الشرفة إلا أتتهما به في سرعة عجيبة، وكانت تشعر بقرب السيارة من البيت فتخرج في استقبالي، وتظل تركض حول السيارة حتى يستوى غطاؤها عليها، لتقفز فوق سقفاها وتتام مفتحة العينين حتى يظهر بياض الصبح، ثم تركض في طلب

تجمعات الكلاب في محاولة التقرب إليها كل يوم، لكن الجميع كان ينفّر منها، ولا أدري لماذا؟

سؤال واحد سألني إياه طبيب الوحدة عندما ذهبت بها إليه : أين نشأت هذه الكلبة؟، لم أعتبر السؤال هاماً، بالنسبة لكلبة مثل هذه؟، لقد ولدت في بيت حمدي وتربت عنده، قبل أن يهديها إليّ، لكن الطبيب لم يعطيني أية فرصة للتكهن، وجدته ينظر إليّ بعينيه الغليظتين، ثم قال وهويضع إبهامه وسبابته تحت ذقنه: حاول أن تعطيني تقريراً مفصلاً عن زوجة حمدي، لأنني على يقين من أن الكلبة قد ورثت عنها هذه الخصال .

لم يشغلني كلام الطبيب كثيراً، لأنه لم يتجاوز حد التخمين، ولو صدق لكان معناه أن زوجة حمدي دائماً الجلوس مع الجيران رغم كرههم لها، ولكان معناه أن زوجته دائماً الصياح في البيت، وأنها تعامل زوجها بكل قسوة، كل ذلك لم يكن مقبولا عندي، حتى مساء ذلك اليوم الذي حاولت فيه الكلبة أن تثب على سيارتنا، عندما لمحتها قادمة من بعيد، إنها هي، وأنا أعرفها

جيدا، وجهها الأصفر، فمها الواسع، أذنيها الصغيرتين، عينيها اللتين يخرج الشرر منهما، وثبها الذي يذكرني بوثبها على الأستاذ محمد وإصابته بخدوش وخموش لا ينساها، إنها هي، كلبتنا التي أود أن أستريح منها.

لاحظتها وهي تحاول الهجوم بقوة على السيارة، كما اعتادت أن تهجم عليها أمام البيت، في محاولة للوقوف على سقفاها، تشبثت بالمقود جيدا، وحاولت ما استطعت تقادي الاصطدام بها، وقد أفلحت في ذلك بالفعل، لكنني اصطدمت بسيارة أجرة كانت تقف عن يمين الطريق، وبينما كنت أعين الأضرار أنا وسائق السيارة لاحظتها وهي تجلس إلى جوار الحائط، ولسانها الذي لم أر في طوله يتحرك ولا يدخل، وكأنها كانت تستمتع بالمشهد الذي تشاهده، وعندما هاتقني حمدي وأنا أقف عند سمكري السيارات، عرفت منه أنه كان يطمع في وساطتي من أجل زواجه بزميلة بينه وبينها ثلاثة عقود، لأن زوجته امرأة متمردة، ولكن من كان يضمن له أنني سأعيش بعد حادث الكلبة ساعة واحدة؟

الستيني المتصابي

تبا لذلك الستيني المتصابي الذي جئنا نحقل ببلوغة سن المعاش، لقد كان يجلس إلى جوارى لأكثر من ساعة، لكنه مذ دخلت تلك الفتاة العشرينية القاعة لم يقر له قرار، تعمد عمل فيديو لتظهر معه في الصورة، حيث كانت تجلس في الصف خلفنا، لم أحتج إلى مزيد فراسة لأتأكد من كل نظراته والتفاتاته التي يجيلها هنا وهناك ثم يستقر بصره حيث تجلس، لكنني رغم كل ذلك لم أتخيل أن يفعل ما فعله معي، حين استأذن في دخول الحمام، فاضطرت لوضع حقبيتي فوق مقعده، حتى احتفظ له به، وبينما كنت أحاول رفعها عندما لمحته قادما لم يلتفت إلى ابتسامتي المصطنعة التي حاولت استقباله بها، وفضل الجلوس إلى جوار تلك الفتاة.

ما الذي كان يفعله خلفي وقد جلس إلى جوارها ؟ لقد طلب منها أن تلتقط له مزيدا الصور، وبالفعل لاحظتها وهي تمسك هاتفه، وتطلب منه تعديل هيئته المرة بعد المرة، حتى تخرج الصورة كما أرادت، ثم

اخترق همسها وضحكاتها سمعي وأنا أحاول التفكير في طبيعة العلاقة التي يمكن أن تجمع بين رجل وامرأة بينهما من العمر ما يربو على ثلاثة عقود كاملة، هكذا كنت أحدث نفسي قبل أن تتادي المنصة عليها، فتخرج لعرض كلمتها في نشوة ومرح .

لم يعطني زميلي فرصة للتفكير أكثر من ذلك، فقد غادر مكانه للمرة الثانية إلى حيث تجلس الفتاة وهي تعيد النظر في أوراقها، ووجدته يلتقط مجموعة من الصور، فرأيتُه ينحني وينثني كما يفعل شاب عشريني في حفل زفاف صديقه، لقد مضت عشر دقائق كاملة لم يفكر فيها بالجلوس لحظة واحدة، فماذا يقول لطلابهِ الذين أصروا على حضور اللقاء؟، وماذا يقول لزملائهِ الذين استقبلوه قبل ساعة استقبالا حارا يليق بمكانته، وهم ينظرون إلى ما قدمه للمؤسسة التي ينتمون إليها بعين الرضا؟، وكيف سيستسيغون ابتسامته المتكررة لتلك المرأة وقد عرفوه بالصرامة والجد منذ عمل معهم ؟

حمدت الله أخيرا لأن الضيفة قد فرغت من إلقاء بيانها، وغادر الزميل القاعة غير عابئ بزملائهِ الذين

كانت أعينهم تلاحقه جيئةً وذهاباً، لقد دفعني الفضول إلى الخروج في أثره، وهممت أن أقدم له النصيح من أجل متابعة الحضور، لولا أنه كان يقف قريباً من باب الحمام، لكنه لا يزال يقلب في شاشة جواله، ثم يبتسم ابتسامة عريضة اختفت معها ملامح الشيب من ناصيته، واضطرت للرجوع إلى القاعة عندما تحققت من دخوله الحمام، لكنني وجدت مقعدي قد شغله أحد الزملاء، ولم تهملني الضيفة حتى أفكر، فقد رفعت حقيبتها من المقعد شاغر إلى جوارها، وطلبت مني الجلوس، وبعد ابتسامة عابرة نسيت معها ما كنت أفكر فيه اضطرت للجلوس وعيني لا تزال ترقب دخوله .

(شكراً لحضرتك) لا أظنني قلت أكثر من هذه الجملة، وليتني ما قلتها، فقد استرسلت الضيفة في أحاديثها، وأطلعنتي على صورتني التي كانت تستقر في ذهن زميلي الستيني، ورغم أن الصورة كانت مشرقة إلى أبعد مدى إلا أنني ظللت مندهشاً، كيف عرفت المرأة كل هذه المعلومات ؟ وكم احتاجت من لقاءات مع

زميلنا لتقف على هذا الكم الهائل من المعلومات
الدقيقة؟

(يا له من ستيني متصابي) هكذا كنت أردد في
نفسي، وأنا أتابع ما تسرده المرأة من معلومات تخص
كثيرا من الزملاء الذين حضروا اللقاء، إنها معلومات
تحتاج ممن يرويها أن يكون زميلا لنا في القسم عشرة
أعوام على أقل تقدير، ما الذي يجعل الشيوخ يفضون
بكل ما يجول بأفئدتهم لأول امرأة تبتسم لهم ؟، هذا ما
كان يدور في رأسي وقتها، قبل أن أنتبه إلى أن فقرة
(التكريمات) قد حان وقتها، وأن المنصة لن تراعي
الترتيب في التكريمات كما راعته في إلقاء الكلمات،
ووجدت الدكتور (إبراهيم) يتوسط المنصة وقد اختفى
بياض ناصيته في حمرة وجهه، وهو يحيي الحضور في
وداعة وحب، كانت كلمات المقدم وقتها تخترق كياني
كله : (كل التحية للدكتورة أمل إبراهيم التي أصرت أن
تشارك أباهما الدكتور إبراهيم محسن هذه اللحظات الأبوية
المرهفة)

عندها فقط تردد في أذني قولها في كلمتها : (لقد
كان أبا وأخا وصديقا ... تعلمت منه ما لم تعلمه لي
الدنيا بأسرها ..، وعرفت معه كيف يصير الوالد صديقا،
والأب أخا، وكيف تضاء البيوت بالحكمة .. والعقول
بالود) ترددت في ذهني هذه المقولة الرائعة فخلجت من
نفسي واضطرت لمغادرة القاعة .

الضيف الضاحك

لم أكن أعرفه، لكنني كنت على يقين من أننا في انتظار ضيف جديد، لقد فتح صديقي زجاج النافذة خمس مرات ليرقب الوافد الجديد، لكن أذان المغرب قد حسم الأمر بالنسبة لنا، فسرعان ما رفعنا أكواب العصير لنروي نفوسنا الظمأى، وسرعان ما أفطر الأطفال أمام البرامج التلفزيونية المشوقة، متجاهلين رجاءات والدهم بالنزول إلى حيث الطابق الأرضي لاستقبال هذا الوافد الجديد .

كنت أسأل نفسي قبل أن يدخل علينا : لماذا كل هذا الاهتمام ؟وماذا عسى سيكون شكل هذا الضيف ؟ لكنني نسيت كل ذلك لما دخل علينا حاملا عكازتين، كانت أسنانه ناصعة البياض، ويحمل وجهها سوريا مشرقا وباسما، وضع عكازتيه جانبا ثم أخذ يشكو صعوبة صعود السلم في جراحة عجيبة، لم ألاحظ أعين الاطفال وهي تتابعه لحظة بلحظة إلا حين رفع جلبابه وهو يستوي على كرسيه، إذ سرعان ما اختلف الأطفال الأربعة الذين كانوا يتناولون

إفطارهم بعد صيام يوم شاق، كل طفلين منهما يحاول الإمساك بركبة من ركبتيه، كأنهم يقولون له : كيف وطأت السجاد بهذا الحذاء أيها الوافد الجديد، لكنه مسح على رؤوسهم جميعا، ولاحت في عينيه دمعة توشك أن تتحدر وهو يقول:

(اثنين اثنين اثنين يقلعونني واثنين يلبسوني)

كنت قد تناولت فطوري تقريبا، ولم أستطع منع عيني من متابعة المشهد، أي حب ذلك الذي يكنه هؤلاء الأطفال لهذا الرجل؟ إن وجهه ما يزال يضحك حتى وهو يتناول فطوره، (سبحان الله) لقد أذنبنا في حق الضيف الذي يستند على عكازتين، حين صمنا على تناول الفطور في الطابق الخامس، لقد ترك الأطفال برامجهم وجلسوا يرقبونه وهو يتناول فطوره، وكلما تناول طعاما سخر منه فانهاالت الضحكات من هنا وهناك، وكل ماكنت أخشاه أن تغضب زوجة صديقنا بعد كل الإرهاق الذي أصابها من تجهيز الفطور في هذا الجو الصيفي الصعب، لكنه لم يعلق تعليقا واحدا على الكفاة أو القطائف أو البسبوسة وكنت أتساءل

لماذا؟ إن الحلوى مصنوعة بمهارة فائقة، وصديقي البدين الذي يجلس إلى جوارى يستغل شغفنا بمتابعة الضيف، وبوشك أن يلتهم الاطباق الزجاجية التي كانت تحمل الحلوى وكأنهم قد اشترطوا عليه أن ينظف الاطباق قبل أن يغادر.

كنا قد آثرنا الجلوس في المجلس الأرضي، ولم يتبق على السفرة إلا ذلك الرجل الضاحك، وزوجة صديقنا وامرأة أخرى، ولم نعد نسمع منذ استوبنا في مجلسنا الأرضي إلا صوت الضحكات وهي تتعالى، شاهدة ببراعة ذلك الضيف في توليد النكتة واستخراج البسمة، لكنني بعد لا أعلم عنه أي شيء، إن كل ما أخبرني به صديقي أن المرأة التي كانت تجلس إلى جواره زوجته، وأنها ماهرة في صناعة الحلوى.

لم يطل فضولي هذه المرة، فسرعان ما أتم الضيف فطوره، وأراد أن يشاركنا الجلوس أرضاً، رغم توصلات زوجته أن يجلس على الكرسي المجاور، نظراً لظروفه الصحية، إلا أن الرجل صمم على النزول، كان الأطفال قد

تحلقوا حوله بمجرد علمهم بتصميمه، وسرعان ما خلع
الطفل الأول رجله الأولى ووضعها إلى جانب الكرسي
وسرعان ما خلعت ابنة صديقنا الرجل الأخرى فأصبح
الرجل فجأة بلا رجلين، وأخذ يحبو أماننا مثلما يحبو
الطفل، ووجهه الضاحك يثير أسئلة لا تنتهي.

عشرة جنيهات

صعدت إلى متن الميكروباص قبل أن أتناول فطوري، لأنني تأخرت عن العمل، كان ذهني منصرفاً إلى تلك الورقة النقدية التي غيرت مزاجي منذ شاهدها أمس، لم أنتبه إلى وجود صديقي (مجدي) في الميكروباص، بفضل تلك المرأة البدينة التي تستحوذ على نصف مقعدي، وتكاد تستنشق كل هواء الميكروباص في تلك الأجواء الحارة، كان علي أن أدفع بالعشرة جنيهات إلى الراكب الذي أمامي حتى يوصلها إلى يد السائق، وهي كافية لي ولصديقي القصير الذي يغوص وحده في مقعده خلف السائق، ولكن ما إن شعر صديقي بما صنعت حتى استدار، وأقسم أن يدفع لنا.

يا لتعاستي ... إن التعاسة تلاحقني منذ شاهدت هذه الورقة النقدية البالية فيما تبقى من مئة جنيه، هي الخامسة في حافظتي، قبل ثلاثة أيام من نزول الراتب الجديد في ماكينات الصراف الآلي، إنني لست متأكدا بالضبط ما إذا

كان البقال أم بائع السمك هو الذي دسها فيما تبقى من نقود، لست متأكدا حتى ما إذا كانت هي ورقة نقدية طبيعية أم أنها خرقة بالية طبعت عليها آثار النقود، كل ما أنا متأكد منه أن نفسي كانت تراودني في أن أتخلص منها في سلة المهملات ليلة أمس، قبل أن تعدي الأوراق الأخرى، وقبل أن يشمت طفلي الذي عنفته قبل يومين عندما لم ينظر فيما أعطاه البقال، لا شك أنه الهاتف الذي شغلت به، لعنة الله عليه .

لم أستسغ طعم قهوتي أمس، وكأن مكامن الحس والتذوق قد توقفت بفضل ما أصابني من ضيق لمجرد بقاء العشرة جنيهاً في جيبي، فتحت شرفة حجرتي وهممت بالفعل أن ألقها منها، لكن النسمة الباردة التي اخترقت رثتي أنستني كل شيء، كنت في انتظار عودة أولادي الذين خرجوا للتنزه بعد تخفيف الحظر من (كورونا)، دق جرس الباب، واضطرت إلى العودة للشرفة من جديد، كان صغيري بانتظار إخوته الذين عادوا من الفسحة بمبلغ لا يكفي وجبة العشاء التي اتفقوا عليها، ألقيت له مئة جنيه

من الشرفة، حتى لا يضطر إلى صعود السلم، ووجدتني أنظر إلى العشرة جنيهاً بحسرة مرة ثانية، فقررت وأنا أغلق النافذة أن أتخلص منها بأية طريقة، حتى أنام نوما هادئاً، لكن ما إن ألقيتها من النافذة حتى ترددت في أذني كلمات أمي التي كانت تحفظني إياها: (إياك والبطر ... احفظ النعمة تحفظك ...)، لكنني عدت فأقنعت نفسي بأن ما فعلته هو الصواب، فقد تذكرت ذلك الجنيه المتهالك الذي وضعته في يد السائل، بعد أن رفض الباعة أخذه، وتوقعت أن يفرح والدي بما فعلت، لكنه نهمني بشده، وقال لي: إياك أن تجعل الله ما تكره.

استطعت أن أنام أخيراً، قبل أن أستيقظ على يدي طفلي وهي تطوق رقبتني، لقد جاء يطلب نقوداً للإفطار، وكل ما عليّ الآن أن أفتح حافظتي لإخراج المبلغ الذي يريده حتى يكف عن مضايقتي، لكنني وجدت نفسي مدفوعاً لفتح النافذة، وكأنني مجرم يريد أن يتثبت من عدم وجود أثر لجريمته في موقع الحادث، تفحصت المكان الذي وقعت فيه العشرة جنيهاً جيداً، وحمدت الله أنني لم

أجد لها أثرا، لكنني لاحظت وأنا أغلق حافظة النقود أنها منتقخة على غير العادة، وعندما تفحصتها وجدت العشرة جنيهات مدسوسة بين الورق، وقفت مذهولا أسأل نفسي : كيف جاءت ؟ مثلما أسأل نفسي الآن : ماذا حدث لـ(مجدي) هذا الصباح ؟، لم يحدث قبل ذلك أن أقسم وصمم كل هذا التصميم على أن يحاسب لي، لقد وصلت الورقتان إلى يد السائق وشاهدت عينيه البارزتين في مرآة الصالون وهو يحملق فيّ، وكأنه يريد أن يقول لي : إن أقل ما يمكن فعله معك أن ألقي هذه الورقة في وجهك، وصلت الورقتان إلى يد السائق، وكل أمني أن ينشغل بعجلة القيادة، ويرد إليّ ورقة مجدي بدلا من أن يرد ورقتي الحزينة .

كانت عينايتان مثبتتين على يد السائق، وهو يسلم الورقة لأحد الركاب حتى يوصلها لي، كان قلبي يرتجف بشدة، أكاد أشعر برجفته وهي تهز قميصي الأزرق، وتكاد تنتقل إلى تلك المرأة البدينة التي تستحوذ على نصف المقعد المتاح لي، لماذا لم ينتظر السائق إلى أن ينزل مجدي،

حتى لا يخرجني أمامه، أريد أن أفيق من هذا الكابوس
اللعين، حتى لو اضطررت أن أنزل في غير محطتي .
قبضت على العشرة جنيهاً أخيراً، بعد أن تأكدت أنها
ليست هي، ولاحظت عيني السائق الغليظتين وهي تحملق
في في مرآة الصالون مرة أخرى، وكأنه يريد أن يقول لي:
أنت ... نعم أنت ... مراقبك كويس جداً.

تشاغلتي بالنظر من خلال النافذة التي التصقت
بأذني، ولم يعطيني السائق حتى فرصة لتغيير مكاني، فكل
همه أن يدخل راكب جديد ليشغل مكان (مجلي)، لكنه ما
لبث أن توقف في محطة البنزين القريبة من موقع عملي،
ووجدت الفرصة مواتية للنزول، عندما تحركت المرأة
لقضاء حاجتها من السوبرماركت، كان عليّ أن أنسحب
برفق حتى لا تلاحظني عين السائق الذي وقف يعد النقود
بالقرب من عامل البنزينة، حملت حقيبتي بالفعل وأنا أسرع
الخطى حتى أتوارى عن عين الجميع وأغوص في زحام
الشارع، وقبل أن أنحرف يساراً إلى حيث الطريق الرئيسي
أتاني صوته عالياً :

أستاذ ... يا أستاذ ... لو سمحت

اضطرتت للالتفات لما اقترب الصوت من أذني، وتأكدت أنه يقصدني أنا، كان السائق يهرول باتجاهي، وهو يمسك العشرة جنيهاً بيده، وما إن وقف أمامي حتى أشاح بها في وجهي :

(هذه العشرة جنيهاً تخصك أنت وزميلك .. أنا متأكد .. وعامل البزينة ألقاها في وجهي، وقال: لن أخذها)

أخرجت الورقة الأخرى من جيبِي وأعطيتها له دون أن أتفوه بكلمة واحدة، ومع أول صندوق قمامة قابلني قطعها قطعاً صغيرة وألقيتها واسترحت

مثل الطيور

ما زلت أذكر حديثها الشيق عنه، وما زالت كلماتها
تخترق أذني وتزلزل كياني، لكني أعود فأعزي نفسي،
فليست صديقتي أول فتاة تعشق كاتبها المفضل وتتحدث
عنه بهذه الحميمية، وتتمنى لو جمعتها به حياة واحدة، لقد
نسيت أن أسألها عن مؤلفاته التي قرأتها، ونسيت حتى أن
أسالها عن اسمه، لم أعد أذكر فقط إلا كلماتها التي ما تزال
تزلزل كياني:

(عندما أقرأ له أشعر وكأنني أرفرف مثل الطيور،
أشعر وكأنني أشاهد الدنيا بعيون أخرى غير التي أرى بها،
فالصباح به حياة غير الحياة، والمساء معه عبق من
الذكريات، أكاد أشعر أنه يراني، يحملق في وجهي، يقول
لي إنك خير فتاة على وجه الأرض، وماذا كنت أرجو غير
قلب كبير مثل قلبه كي يسعني) .

لا أدري كيف مضت تلك الليلة، ولماذا شغلنتي كلمات
صديقتي إلى هذا الحد الذي كنت فيه أشعر بكل كلمة من

كلماتها، وأحس بالطاقة الإيجابية التي يحملها كل حرف من هذه الحروف، لكنني نمت أخيرا بعد أن اهتديت إلى ضرورة مهافتها في الغد تمهيدا للقائها واستعارة بعض المؤلفات التي قرأتها .

لم يمهلي جرس الهاتف حتى أكمل ذلك الحلم الجميل الذي عشت معه تلك الليلة، يا إلهي ... إنها هي ... تلح في طلب دفتر المحاضرات حتى تطلع على ما فاتها، في الوقت الذي شغلت خلاله بمرافقة والدها المريض، كانت صورة الكاتب التي رافقتني خلال تلك الليلة تتردد ما بين نزار قباني وفاروق جويده، وعندما أركز في المخيلة أقف مع عبد الوهاب مطاوع أو إحسان عبد القدوس، من يكون فارس أحلام صديقتي؟، لقد بت على مقربة منه، ولم تعد تفصلني عنه سوى ساعات، ألملم فيها محاضراتي وأدلف إلى حيث تقطن صديقتي في حارة ضيقة بحي شعبي يستحيل عليّ التفكير في اختراقه في أية ليلة من ليالي الشتاء .

لم تمهلني صديقتي أسأل كثيرا من الجيران، فقد أشارت إليّ من شرفة قديمة، دلفت بعدها إلى باب صغير، يعلوه درج سلم متهاك وأنا أسمع تحذيراتها المتكررة من درجات السلم المكسورة ودهانات الجدران الرديئة التي توسخ الملابس، لكنني وصلت بخير إلى حيث الشقة ذات الغرفتين، إلى حيث الصمت المريع، والأثاث الذي يحمل عبق التاريخ بالقدر الذي يحمل معه الرضا والقناعة في أزهى صورة.

(سلوى ... يا سلوى) أتى النداء متقطعا حزينا، ولم أحتج إلى مزيد من الفراسة حتى أتأكد أنه صوت والدها المريض .. لكنها تشبثت بيدي في طريقها للغرفة التي تطل على الشارع الرئيسي، إذ لم يكن بالغرفة غير والدها الضرير، الذي لم يسمع ترحيبي في البداية لأن سماعات الأذن كانت مثبتة في أذنه بعناية، وبدلا من أن يرفع السماعة من أذنه نزع الفيشة من جهاز التسجيل فسمعت صوت (سلوى) المسجل يكرر بعض المتون العلمية، ولما شاهدت الدهشة في عيني، أخبرتني أن والدها الضرير

الذي خرجت به من الدنيا، منتسب إلى معهد القراءات في هذه السن، وبدلاً من أن أشاهد مكتبة من المؤلفات الرومانسية، شاهدت مكتبة (سلوى) التي تعج بكم هائل من كتب القراءات والتجويد .

كان علي أن أسألها عن المؤلف الذي تقرأ له، والذي شغفني ليلة كاملة لم أذق فيها نوما هائناً، لكنني وجدتني أردد كلماتها بابتسامة شاهدت بريقها في عينيها الجميلتين: (أشعر وكأنني أشاهد الدنيا بعيون أخرى غير التي أرى بها)، فوجدتها تشير إلى غرفة أبيها : إنه أبي عند ما أقرأ له أشعر وكأنني أرفرف مثل الطيور .

سناء

عندما لاحظتُ أنني أنظر إلى حيث تجلس هي وزميلتها أمام بيت جارتنا - نظرت في الجوال في ارتباك ثم أخفته في جيبها مثلما كان يفعل الطلاب الفاشلون للغش في الاختبارات، ترى ماذا يحمله الجوال من أسرار تحاول أن تخفيها ؟ مالذي يمكن لطفلة في العاشرة من عمرها أن تخفيه بهذه الطريقة المريبة؟، كانت هذه التساؤلات تدور في رأسي قبل أن أشير لابنة العاشرة أن تأتي إليّ، لم أصدق هذه المرة أن هذه هي (سناء) التي دائما ما تنتظر في موطئ قدمها كلما رأيتي قادمة من بعيد، لقد طأطأت رأسها كما كانت تفعل من قبل، ووجدتني أسألها عن الساعة أملا في أن تخرج الجوال مرة أخرى لكنها لم تفعل، ابتسمت مغتاضا ولا أظن ساعتها أن الغيظ قد بدا على قسمات وجهي، فقد كان ضوء مصباح الشارع يأتي شاحبا مسلطا على وجه (سناء) وهي تقف حاسرة الرأس مرتبكة ارتباكها أمام

مدرس الجغرافيا وهو يسألها، ما أكبر الدول العربية إنتاجا للقطن فأجابته (المحلة الكبرى) لكنها لم تستوعب الدرس جيدا، ليس لأنها لم تعرف أكبر الدول العربية إنتاجا للقطن، وإنما لأنها لا زالت تشغل بزميلتها وجارتها في الفصل وفي البيت مهما كلفها ذلك من صواب .

. عاوز حاجة تاني يا أستاذ ؟

قالتها وهي تحاول رفع جبهتها قبل أن تعطيني ظهرها لتكمل الجلوس مع جارتها أمام باب البيت .

جاء صوت زوجة أبيها من الشرفة أخيرا، وهي تدعوها للصعود إلى الشقة حيث تأخرت كالعادة، وبقي على قدوم والدها عشر دقائق، كانت هذه الدقائق كفيلة كل ليلة أن تعيد سناء إلى شقتها، موهمة أباه أنها لم تغادرها منذ خرج في الواحدة ظهرا إلى وديته .

سمعت دبيب قدميه الثقيلتين اللتين ترحفان على الأسفلت كما يزحف الأطفال بعجلات دراجاتهم طول اليوم، ولا حظته من خلال الشرفة وهو يحمل كيسين

من البلاستيك ثم يرفع رأسه ويخفضها بطريقة
كاركاتيرية وكأنه في تمرين رياضي للرقبة .

كنت أسأل نفسي طيلة الأسبوع، هل عنده علم
بهاتف سناء ؟ أليس هو الذي فرّج الشارع بأكمله على
زوجته الأولى قبل ثلاثة أعوام، عندما رآها في العاشرة
صباحا وهي تحاور أختها في الجوال بصوت مرتفع ؟،
لقد تيقنتُ قبل يومين أنه هاتفها هي وليس هاتف
جارتها، لم تلاحظني قادمًا من بعيد في تلك المرة لأنها
دخلت الشارع قبلي بدقيقتين لكنها كانت منشغلة
بالجوال، وكانت أشعة الشمس تحجب ما تريد قراءته
على شاشة الهاتف، لقد تخيلت رعدتها حتى دون أن
أراها عندما تأكدت أنه أنا الذي أمر إلى جوارها برفق،
و كدت أسمع الصوت الذي يهاتفها لكن الارتباك
والخوف لن يمنعاها من فعل ذلك، واحدة فقط هي التي
تستطيع ذلك، ولكن من أين لي برقم أمها لأخبرها عن
كل الهواجس التي تدور في رأسي، لقد تزوجت هي
الأخرى منذ عامين، ولم أعد أراها كل يوم كما اعتدت،

لكنني حريص على أن تظل صورة سناء في مخيلتي
كما هي، فمازالت كلمات أمها تتردد في سمعي وكأنها
تقول لي الآن :

(سناء ليس لها سيرة إلا الأستاذ مصطفى، كل ليلة
تقول نفسي أطلع مثل الأستاذ مصطفى، وعندما أسأله
عن السبب تقول لي : الشارع كله يحبه يا ماما، اسألي
الشارع كله.)

كانت عطلة نهاية العام فرصة سانحة لأن أرى
(سناء) أكثر من مرة فهي إما ذاهبة لقضاء حاجات
البيت لزوجة أبيها أو عائدة بأكياس تستهلك أصابع
يدها الضئيلة التي لا تقوى على حمل الأثقال مما
يضايرها إلى الاستراحة قبل أن تصل إلى البيت متخفية
في ظل العمود، حتى لا تلاحظها عين زوجة أبيها وهي
تصف الغسيل أو تجمعها من منشر البلكونة .

لا أدري ما الذي جعلني أخبر زوجتي بما يدور في
رأسي، لكنني تفاعلت من حماسها الزائدة التي أظهرتها
حين طلبت منها رقم أم سناء، لقد كانت تحتفظ برقمها

القديم لكنها أهملته منذ ردت عليها فتاة صغيرة و
أخبرتها أن الرقم خطأ .

(ستجد رقم أم سناء على هاتفي، اتصل بها حتى أفرغ
من تجهيز الغداء)

هكذا أتاني صوت زوجتي قبل أن أتورط فأطلب
الرقم القديم لأم سناء فتد على الطفلة ذاتها، لكنني
تأكدت وأنا أهاقها من الشرفة أنها هي (سناء) وأن أمها
أعطتها الهاتف دون علم أبيها، لتطمئن به عليها كل
يوم .

الرسالة الرابعة

(أشرك على قبول الصداقة يا أستاذي الأعز، و أرجو أن تكون بخير وبصحة جيدة، أحببت الاطمئنان عليك لأنك أغلى عندي من نور عيوني، أغلى حتى من أولادي ... لا تحاول أن تبحث عن اسمي فلن تستطيع الوصول إلي أبدا .. إنني أعرف عنك كل شيء، أعرف ماذا تحب وماذا تكره من المأكولات والمشروبات، وأعلم أنك ستلتفت يمينا ويسارا عندما تقرأ رسالتي لتطمئن أن أحدا لا يشاركك في قراءتها .. قلت لك إنني أعرف حتى عدد الأنفاس التي تتنفسها .. وأحبك إلى أبعد حد... إلى اللقاء) .

هل كانت هذه الرسالة من حساب جديد في الفيس بوك، أم أنها تنويمة سحرية جاءت من ساحر محترف، لقد أدركت رأسي بعد قراءتها وهي تدور كالرحى،أخذت أسأل نفسي: من تلك التي تحبني أكثر من أبنائها؟، وكيف تعرف عني كل التفاصيل الصغيرة كما تزعم؟،

ولم تخفي نفسها عني بهذه الطريقة؟، وما هذا الاسم الغريب الذي سمت حسابها به (أخت القمر)؟ يا لها من ليلة، ... إنني لم أستطع أن أصنع أي شيء، لم أستطع الرد عليها، ولم أستطع الرد على المنشورات ولم أستطع الوصول إلى أي خيط يساعد في فك شفرات هذا الحساب الجديد، إن الزهرة الحمراء التي تستند إلى تلك الخلفية السوداء في صورة البروفایل تذكرني بعباءة أعز إنسانة عرفتھا قبل أن أرتبط .. معقول، لا لا .. إنا لم نتكلم سوى مرة أو مرتين، وصاحبة الحساب تقول إنها تعرف ما أحب وما أكره، إن الوحيدة التي كانت تعرف ما أحب وما أكره هي أمي رحمها الله، لقد كانت تقرأ نظراتي وتفك شفراتها بكل سهولة، لم أنس ابتسامتها ذات صباح عندما قالت وهي تضع سلة الخضروات عن رأسها : ستسأل عن التين البرشومي كالعادة، ثم تقول وهي تخرج كيس التين من السلة : ها هو التين يا سيدي، وستسأل عن وجبتك المفضلة، ثم تقول وهي

تخرج الكيس الأبيض: وهذا هو المخ يا سيدي فيه
حاجة تانية ؟.

- آه فيه .

- ايه يا سيدي قول .

- حضن كبير جدا لأحلى أم في الدنيا .

من كان يصدق ساعتها أن أمي قد ذهبت إلى السوق
وليس معها جنيه واحد، كل ما كان معها بطة كبيرة،
كل أملها أن تبيعها لشراء ثمرة التين التي رأيت مثلها في
يد ابن الجيران، وجلست أبكي لأنه لم يعطني منها .

تولد لدي شغف لمتابعة كل ما يأتي من هذا
الحساب الجديد، ففي صبيحة اليوم الثاني وصلت
الرسالة الثانية، لكنها لم تكن مكتوبة مثل الرسالة
الأولى، وإنما كانت عبارة عن مقطع صوتي من أغنية
(الحب الحقيقي) ...يا الله... من يعلم أنني أحب كلمات
هذه الأغنية حبا جنونيا ؟ هل تكون صاحبة الحساب
هي تلك المراهقة التي كانت تعاكسني عندما كنت على

أعتاب الجامعة .. لا لا .. بالطبع ربما كانت مصادفة ..
إن صاحبة الحساب تزعم أنها تعرف عني كل شيء ..
لقد مر وقت طويل على هذه المعاكسات الليلية، وقد
عرفت بعدها أن (زهرة) كانت وراء أكثرها .

إنني بحاجة لأن أتحدث إلى أحد، لكن بالطبع لن
تكون زوجتي، إن مجرد إحساسها بأنني متلهف لرؤية
الجديد بالبريد سيثيرها إلى أقصى درجة، فما بالها لو
علمت بهذه الرسالة المثيرة .. ستقول لي : الله الله ..
لقد فتحت باب الغراميات على أشده يا سيدي، وعندما
نتحدث نحن في الهاتف نقول إننا نقطع حبل أفكارك،
سنترك أشغالنا وأولادنا وننفرغ للرد على رسائل البنات
عديمات التربية .

سأقول (عديمات التربية ؟)، وسترد علي (وهل فيه
بنت على قدر من التربية تكتب مثل هذا الكلام؟)،
وسيكون الحكم بيني وبينها كالعادة في يد أختي التي
تصغرنى بعامين .. وتستطيع بلباقتها إقناع زوجتي
وامتصاص غضبي في آن .

(لا لا .. الطيب أحسن) هكذا كنت أقول في نفسي،
قبل أن أقرر الاتصال بأختي مباشرة لاستشارتها في
الأمر .

- تتصوري يا أم يوسف من من البنات التي كن
يعرفنني أيام الشباب تستطيع أن تعرف عني أشياء كثيرة؟
بهتت أختي عندما سمعت سؤالي، لكنها ردت بلباقة
تحسد عليها :

- أنا عارفة يا سيدي .. طول عمرك معجباتك كثير ..
شوف كنت بتحكي أسرارك لمين ولا لمين ؟ مع السلامة
يا روميو .

يبدو أنني أخطأت الطريق، فقد فتحت أختي تحقيقا
موسعا، أقلت منه بصعوبة بالغة، لكنها أكدت أن المرأة
بوسعها أن تحب شخصا ما حبها لأولادها، لكنني ما
زلت في شوق لمعرفة ما تحمله الرسالة الثالثة من
غرائب رغم إصراري على عدم الرد على الرسالتين
السابقتين، ولكن متى ستأتي الرسالة ؟، ولماذا تصل
الرسائل عندما أخذ إلى النوم بعد صلاة الفجر ؟ .

(أنا آسفة جدا، لقد شغلت تفكيرك يومين كاملين ..
لكن اسمح لي أن أكون أول من يهنئك بعيد ميلادك
القادم بعد يومين يا أغلى ما خلق الله)

هذا هو نص الرسالة، لكن الوحيدة التي تعرف يقينا
تاريخ ميلادي فيما أظن هي زوجتي .. معقول .. هل
تكون هذه المحاولة هي اشتغالة من زوجتي للتأكد من
إخلاصي .. لا لا .. إن زوجتي لا تطيق الصبر على
الخبر لأكثر من ساعة ثم تنتشره بين أولادنا، وسرعان ما
ينادييني (شادي) أو تغمز لي (حنين) من أجل الظفر
بالمكافأة التي أعدهم بها دائما مع كل خبر جديد ..
يبدو أنه ليس أمامي إلا انتظار الرسائل القادمة، أو
انضمام مجموعة من الأصدقاء لهذا الحساب حتى
أستطيع الوقوف جيدا على هويته .

كانت جارتنا ابنة السبعة عشر عاما لا تزال تمارس
هوايتها في نشر الملابس بطريقة بديعة أمام شرفتنا، ثم
تطيل النظر كالعادة لتكعيبة اللباب التي تكسو شرفتنا
بلونها الأخضر الزاهي (معقول .. هل يمكن أن تكون

(إيناس) هي صاحبة هذه الرسائل ؟ .. لا لا .. إنها تكبر ابني شادي بخمس سنوات .. ولا تقول لي إلا (عمو) أي نعم .. زوجتي لا تطيقها ماشية على الأرض؛ لأنها تسهم بطريقة غريبة وكأنها تنام وتصحو كلما جاءت لأشرح لها مسألة من مسائل الجبر .. لكن كيف تكتب مثل هذا الكلام .. وكيف تعرف عني كل هذه الأشياء ؟ .. لا لا ..

حمدت الله أن زوجتي لم تكن موجودة في البيت، ولم تسمع قول أختي (عامل إيه يا روميو .. هل وصلت الرسالة الرابعة ولا إيه)، لقد كنت بالفعل أكلهما وذهنى مشغول بالرسالة الرابعة، وماذا عساها تحمل من أسرار مشوقه عن صاحبة هذا الحساب الغريب، ظلت طول اليوم في انتظار الرسالة الرابعة لكنها لم تصل، ولم أنم بعد فجر اليوم التالي، في انتظار رسالة لا أدري متى ستأتي ؟ وماذا ستحمل من غيب لي ؟

لا حظت أختي التي جاءت تزورني اهتمامي بمراجعة الحساب، ولم يدر بخدي أنها جاءت خصيصا

لتحتفل معنا بعيد ميلادي، حاملة معها رابطة عنق في
منتهى الذوق، ولم أنتبه إلى الظرف الصغير الذي
وضع بعناية في علبة رابطة العنق، حتى مدت يدها
وأخرجت رسالة التهئة التي لم يكتب فيها سوى كلمتين
(نور عيني)

لم أعبأ بكل هذا، ولم تشغلني الرسالة، فكل ذهني
مشغول بمتابعة الهاتف في انتظار الرسالة الرابعة التي
تأبى أن تصلني، لكن أختي أصرت على إخراج خطاب
التهئة وأشارت إلى العبارة المكتوبة على الغلاف
بخطها الجميل (الرسالة الرابعة) فماذا كانت تقصد ؟

رائحة الخوف

هل كان أبي يعطيني قدرا كافيا من الثقة عندما كنت صغيرا ؟ لا .. أبدا، لا زلت أذكر جيدا كيف كان يعيرني بزميلي محمد رغم علمه بأنه يكبرني بعام كامل، إنه لم يشجعني إلا بعدما أصبحت على أعتاب المرحلة الثانوية، بعد أن صار لي أصحاب رأيت في أعينهم تميزي العلمي، أما أبي فلا أذكر أنني نمت إلا على خوف من عصاه الغليظة، أو رغبة في الخلاص من أسئلته التي لا تنتهي، ولا ينتهي معها صوته الأجش، واتهاماته لأمي بالإهمال، ولأخوالي بالطيش والنزق، ثم ينتهي الأمر كالعادة بخلاف حاد، وبكاء مستمر من أمي، فما الذي يجعله الآن يفخر أمام زملائه بأن ما وصلت إليه من مجد إنما كان بفضل إعطائه الثقة لي ؟.

إنني أتذكر تلك الليلة التي طلق فيها أمي، كان يوم الاحتفال بالمولد النبوي، وكانت أمي تجلس أمام الموقد في انتظار أن يطيب لحم البطة التي وضعتها في إناء عميق،

وكننت إلى جوارها مشغولا بأكل كبد البطة كالعادة، كانت
علبة الحلوى التي أهداها لنا خالي لا تزال بجوار التلفزيون،
في انتظار والدي الذي دائما ما يتصدر فتح كل ما هو
جديد، لكنه لم يفعل، عرف أن خالي كان موجودا، فتعد
الانتظار عند صديقه، رأيته وهو يزيج علبة الحلوى بيديه
حتى وقعت، وهممت أن أعيدها إلى مكانها فسألني عن
كتابة الواجب، كان عصيبا حد الجنون، ركل العلبة برجله
حتى أدخلها تحت الأريكة.

(هذه نعمة يا كامل) لم تكمل أُمي كلمتها حتى انهال
عليها بالضرب وهو يصيح (أنا كافر يا بنت الكلب)،
انزويت في ركن الحجرة كما ينزوي الفأر الذي أدركه القط،
كنت أبكي بشدة، لم أستطع أن أتحكم في البول، عندما ركل
الإناء فتناثرت الشورية الساخنة وأجزاء البطة في الغرفة
على بعد سنتيمترات من جسد أُمي الذي تمدد خائر القوى،
حاولت أُمي أن تجمع قواها وهي تجذبني إليها وتصرخ
بشدة:

. العيشة معك أصبحت مستحيلة.

. في ستين داهية .. أنت وأهلك .

إن أمي هي كل شيء في حياتي، لكم لاحظتها وهي تجلس
باكية خارج البيت في ساعات متأخرة من الليل، تريد أن
تمشي إلى حيث بلاد الله الواسعة، لا تقيدتها قيود الحياة، ولا
يتحكم فيها من يأمر وينهى لمجرد الأمر أو النهي، لكنها
كانت تجلس لأجلي، ولأجلي فقط

ولماذا جئت يا صديقي تذكرني بهذا التاريخ الذي طالما
حلمت أن أنساه يوما ما؟، هل كل ذلك لأنني وقعت في
خلاف حاد مع أختك؟، إنني نادم على هذه الزيجة التي لو
فكرت فيها بعقلي ما أقدمت عليها أبدا، إنني أحمد الله أنني
لم أكن ربيب أسرتكم، ولم أمت إليها بأية صلة، فلم تكن أمي
تشبه أمك في أي شيء، لقد أعطى والدك لأمك الفرصة
كاملة لكي تظل متسلطة تدير الأمور بمنطق الهوى النسوى
الذي يرضى في نفس الدقيقة التي يغضب فيها، نعم تذكرت
.. كان ذلك يحدث نادرا مع أمي عندما تزورنا جدتي، ثم ما
تلبث أن تصفو وتبتسم، لكن أمك كانت تورثكم كره الآخر،
طالما أن الآخر يعاملها بقسوة وغلظة.

لقد مسخت أمك شخصية كل من في الأسرة، كانت تريد أن تثبت لنفسها بأنها مثل الرجال، وأن أمها التي لم ترزق الولد قد عوضها الله بأنثى بألف رجل، لكن الحارة كلها لا تتكلم الآن إلا بإلقاء اللوم عليها، حيث أنجبت شبابا مكتوفي الأيدي، لا يسيرون إلا بالأمر، ولا يتصرفون إلا بحكمة المرأة الحديدية التي تغضب أكثر مما تصفو، وكأن غضبها شماعة يتوارى خلفها الضعف الذي لا تريد أن تعترف به .

لماذا جئت يا صديقي الآن ؟ .. وهل هذا مدخل يليق إذا كنت تريد الصلح بين أختك وزوجها ؟.

كانت هذه هي البداية التي استقبلني بها، عندما حاولت أن أصلح بينه وبين أختي، وأنا أعلم أنه يحبها، وهي تعشق التراب الذي يمشي عليه، لم يكن يعيبه شيء حتى ترفضه ابنة عمي عندما تقدم لخطبتها، كانت منهارة، وكأننا قلنا لها إنك ستدخلين النار بدلا من عش الزوجية، أنا واثق تماما من أنها لم تعرف أحدا غيره، لم يكن وسيما ربما للدرجة التي تجعله فتى أحلام الفتيات، لكنه استطاع الحصول على

عمل في جريدة مرموقة، لأنه كاتب جيد، ولو أنني على ثقة من أنها تعرف أحدا ما رشحته لها .

كيف كنت سأبلغه برفضها الارتباط به، وما هي المبررات المقنعة التي سأستخدمها من أجل الحفاظ على شعور صديق العمر بعد رفض ابنة عمي له؟، إنها ثاني فتاة يتقدم لخطبتها وترفض، لكنه يختار أجمل الفتيات بالفعل، فهل سيقنع إن قلت له إنها تريد أن تكمل تعليمها لتصبح مهندسة مثلي؟

هل كانت مهنة أبيه سببا في الرفض؟، لقد كان أودع طالب في فصلنا الدراسي، كانت يد الزملاء وألسنتهم تؤذيه بالسخرية أحيانا، لكنه لم يرد السوء بالسوء أبدا، وفي الوقت الذي كان كل منا يحلم بالحصول على وظيفة يساعد بها أهله، كانت وظيفته محفوظة في أخيلتنا، لكن أباه كان يشعر باستياءه الشديد من مهنة (الحلاقة)، كان يهرب من البيت حين يرى زملاءه وهم يدخلون محل والده الذي كان غرفة من غرف البيت في البداية، لكننا وقتها لم نعرف سبب عزوفه عن حلاقة شعره، ولا نظن أن الحلاقة كل شهرين

كانت من باب التوفير ، فلطالما خرج مع المذنبين في طابور المدرسة بسبب شعره، ولولا أنه كان من أنبه الطلاب وقتها، لصارت عقدته مركبة، إنه دائما ما يغضب إذا قال له أحد زملائنا: (يا ابن الحلاق)، لكنه يظل محتفظا بهدوئه الذي يغيظني .

إن والده كان يعمل حلاقا بالفعل، لكن النظرة الدونية للوظائف كانت سببا في حدوث كثير من السخافات، ربما لأن الحلاقين وقتها لم يكونوا يملكون أماكن لاستضافة الزبائن فيها ؟، مما يجعل الحلاق يجوب البلدة بشنطته المتواضعة، بحثا عما يسد به رمقه ورمق أبنائه.

لقد سمعت أُمي وهي تقول: إنني بارد مثل الحلاقين، عندما أثرتها بنكتة طريفة، وبالفعل فكرت في الأمر بمنطق الطفل البريء، وكان يخيل لي أن الحلاق لو زارنا فوضع يده على كوب المياه فسيستحيل الماء مثلجا، لقد كنت أشعر بيد الحلاق الباردة وهو يثبت الفوطة أو يفكها من رقبتني، وكنت أقول في نفسي : لقد صدقوا إنه بارد حقا، لكن أبي سرعان ما شرح لي الأمر، فبين لي أن المقصود بالبرود

عدة الشغل التي يعمل بها، إذ إنها كانت تبرد في موسم العمل، ويتكاسل الحلاق عن الذهاب لسنها في المدينة .

ورغم محاولاتي لإقناعه ظل (محمد) متعلقا بابنة عمي، فكان يمر على شارعنا في ذهابه وإيابه، رغم بعد المسافة بين بيته وموقف الميكروباص، لا أنكر أنني كنت متعاطفا معه إلى أقصى درجة، لكن ابنة عمي ليست معنا في هذه القصة إطلاقا، فما الذي أوحى له أنها تحبه، أو أنها يمكن أن ترتبط به ؟

كان عشمه يفوق الحد، وكان عليّ أن أستدرجه في الحديث، لأن ما بيني وبينه ربما يفوق علاقة القرابة بيني وبين (فاطمة)، لقد عرفت منه أن شباكها كان سببا في كل هذا، فهل كانت ترقب بيتنا من خلال شيش النافذة في غرفتها، فتخرج عندما تلمحه واقفا في انتظاري أمام بيتنا؟، وهل كانت ابتسامتها الصافية دليلا كافيا على ثقته وإقدامه على خطوة الخطبة بكل هذه الجسارة ؟

إنني أذكر المرة التي قابلتنا فيها قادمة من الدرس، وأذكر جيدا أنه حاول الدخول في الحوار أكثر من مرة، لكنها لم

تنتظر إليه، وإذا كانت النظرات التي صرح لي بها أخيراً صادقة. فكيف أكذب عيني وأنا أراها تبكي منهارة وتقول لي : حلم حياتي أن أكون مثلك يا باشمهندس.

لقد انتهى كل شيء، ولكن علاقة (محمد) بالشباك ظلت معقدة، لقد خطب أختي (شربات) التي تكبر فاطمة بعامين، بعد أن التحقت بقسم الطب النفسي في الجامعة، وظل وقوفها في الشرفة من أهم الأشياء التي كانت تدخل عليه البهجة في الخطبة، كان يمر في وقت متفق عليه بينهما، فتفتح (شربات) شيش بلكونتها لتجمع الغسيل ساعة العصري، أو تنفض الغبار الذي تراكم على ورقات الشيش، ثم تشير إليه بأطراف أصابعها مودعة.

لا أنكر أن (محمدًا) قد حبيب إلي الشباك، فصرت أفتح الشرفة كثيراً، فأجدني كنت محروماً من نسمة الربيع المعطرة، التي كانت تأتي محملة برحيق أزهار الليمون والبرتقال من الحدائق التي تبعد عن بيتنا مئات الأمتار، وكلما رأيت أن (فاطمة) ما زالت تفعل نفس الأفعال التي تفعلها (شربات) يجن جنوني، وأجلس لأسأل نفسي : كيف

حفظت أحتي (شربات) كل الحركات التي كانت تؤديها فاطمة؟، وكيف استطاعت أن تفتح في قلب (محمد) نافذة جديدة يطل منها على الحياة من جديد؟، إنها نفس الحركات، ونفس الابتسامات ونفس الإشارات .

لا شك أنها كانت تحبه بجنون، وإن لم تصرح لأحد بذلك، ورغم كونها أصبحت طبيبة إلا أنها كان شغوفة بالقراءة، تطرب للقصص المترجمة، وتعلق عليها بحواش غاية في الدقة، تصل فيها إلى فهم دقيق لتصرف الشخصيات، وتتكهن في دقة عجيبة برود أفعالها، مما أدهش زوجها الذي دائما ما يعرض عليها أعماله راجيا أن يفلح في الحصول على إجازتها النفسية، وما أتعهه من يوم، ذلك اليوم الذي قرأت فيه قصته (المجهول) التي يقول فيها: " أجلسني إلى حيث يستقر (الشازلونج) الأسود المقابل لمكتبه، وجاء بدفتره وجلس بحذاء صدري، واضعا يدي اليسرى على اليمنى، ثم طلب مني أن أسترخي ولا أفكر في شيء مزعج، بدأت أشعر وكأنني بحاجة إلى نوم عميق تأخر ليومين أو ثلاثة، وبدأت أشعر ببرودة الهواء القادم من

النافذة عبر الشيش القريب مني، وبدأت يدي تتخدر شيئاً فشيئاً، وبدأت نظارته الغليظة ترقص أمام عيني كما كان يرقص عقرب الساعة الذي رأيته في غرفة العمليات قبل شهرين، أتاني صوته خافتاً هادئاً، وكأنه صوت هاتف يهتف لي من بعيد :

- (هل رأيته؟)

- نعم رأيته كما أرى كل البشر في الحياة اليومية، كان شخصاً عادياً هادئاً، يحاكيني في كل شيء، فلا يجلس إلا مضجعا ولا يمشي إلا مسرعاً كما أفعل في العادة، ربما كان الفارق الوحيد بيني وبينه أنه لم يصلح أسنانه عند طبيب الأسنان، إذ لا تزال قواطعه حادة وأنيابه لامعة كشباب في مقتبل العمر.

ترى من يمكنه أن يصدقني إن قلت إنه تمثل لي بشراً سوياً، إن أمني دائماً ما تحضني على القيام من السرير، والخروج إلى حيث يستمتع الأصدقاء بأوقاتهم، لكنني لا أحب ذلك، فميلي إلى النوم لا يقاوم، وإن حدثت أبي سيقول لي (استعذ بالله من الشيطان الرجيم)، لكنني أفعل وأفعل،

دون أن ينصرف، يظل يضحك بملء فيه حتى أرى أنيابه البارزة، وأذنيه اللتين تشبهان أذن الذئب، ثم يهدأ قليلا ليستمتع معي بمشاهدة قنوات الترفيه التي أشاهدها .

كنت أستمع لحكايا أمي وأنا صغير، وكانت دائما ما تؤكد في الحكايا أن هناك قرينا لكل آدمي، فهل هذا هو قريني الذي حكى أمي عنه؟ وهل ينام كما أنام؟ ولماذا يغيب عن البيت آخر الليل؟، هل كان لديه اجتماع سري يجتمع فيه هو وأقرانه لكتابة التقرير اليومي عن القراء؟ وإذا كان كذلك، فكيف يعرف أنني سأنام في ليلة فيمشي، أو سأسهر حتى الصباح في ليلة أخرى فأجده مضطجعا إلى جوارى، مستمتعا بمشاهدة قنوات الترفيه معي؟

أنا متأكد أنه يربطني بوثاق غليظ بمجرد أن يداعب النوم عيني حتى يضمن عدم استيقاظي، ففي كثير من الليلات أحاول الفكاك فلا أستطيع، شيء يجثم على صدري، فلا تخرج صيحتي أبدا، ولا أرى الوثاق، ولا العقد الثلاث التي يضربها فوق الرأس، لطالما قلت في نفسي إنه يوثقني ليحضر اجتماع مجلس إدارة الجن، ليووقع في

كشوف الحضور والانصراف هناك، دون أن يشاهد محاولتي البائسة لقطع حباله وفك عقدها .

كنت أشاهده وهو يهرع إلى الحمام بمجرد وقوفي على سجادة الصلاة، فأقول في نفسي: سيتوضأ ويجيء، لكنه لا يأتي إلا واضعاً أمامي قائمة بالأعمال التي ينبغي عليّ القيام بها، فلا أصلي النوافل ولا أختتم الصلاة، وربما قطعت الصلاة لمتابعة القائمة التي يعرضها أمامي .

لقد بدأت أخجل من خلع ملابسي مذ تمثل لي، على الرغم من جريه للوقوف أمام الباب، لكنني اضطررت إلى الالتزام بوصية أبي، فكنت لا أخلع سروالي إلا بعد ارتداء جلباب النوم، ولا أستحم إلا ساتراً عورتي، كنت أرى عينيه وهي تتابعني من ثقب الباب، وأسمع ضحكاته الرنانة التي تأتي عبر باب الحمام مختلطة بصوت الماء النازل من الصنبور، ومع ذلك فهو هادئ جداً وأنا أشاهد التلفاز، هادئ حين أحدث زميلة من الزميلات .

خلع الطبيب نظارته السوداء الغليظة، ووضع دفتره على المكتب الذي أمامه، وبدأت أتتحقق من ملامح وجهه

التي تشبه ملامحي وهو يخلع البالطو الأبيض، ويقول
بنفس طبقة الصوت الخافت الهادئ:

(لا تخبر أحدا بأنك رأيتني، وأنا أشاهد قنوات الترفيه..والإلا)
تحققت من ملامح الطبيب التي تشكلت بصورتي تماما،
وفزعت من نومي وأنا أصرخ كالمجنون : (إنه هو.. إنه هو).
هو).

لقد كتبت أختي (شربات) بقلمها الرصاصي على
حاشية القصة (Depression)، وعندما سألتها عن تفسير
الكلمات المكتوبة قالت كنت أذاكر، ولكن الإجابة لم تعجبه،
فقد أظهرت عينها بعض ما تخفيه من اتهامات، ومن ثم
أجهد نفسه في ترجمة هذه الحروف المكتوبة بطريقة
صعبة، حتى استقر في النهاية أنها تعني (اكتئاب)، وعندها
أخبرتني (شربات) أن هذا لم يكن حديث شخصية من
الشخصيات التي يعالجها في قصصه، إنه إحساسه هو
وخبايا نفسه هو، إن علاقة المبدع بالمريض النفسي لا تزال
متشاكلة، فعلى الرغم من رهاقة حس المريض النفسي
وعاطفيته وكشفه للأمور بأريحية مذهلة - يبدو غير سعيد

من الداخل، يتقمص الشخصيات ويحكي كأنه هي، يحل
ردود الأفعال حتى قبل أن تحدث، مثلما يفعل كاتب القصة
والرواية تماما، لأن سعادته ربما تكمن في فهم الغير،
وكشف ما يضمرون خلف أقنعتهم الواهية .

انتبهت أخيرا إلى أن (شربات) ما زالت تكلمني، كنت
أفكر فيما عسى زوج أختي أن يفعل، هل كان عليه أن يدقق
في الأمر؟، إنه لم ينم منذ ليلتين، لكنه كان ينام قبلها
ساعات وساعات، لم يكن مريضا، لكنه أصبح يحس
بالوهن وهو ينخر عظامه، أصبح ينظر كثيرا في المرأة،
ليرى هل سيخرج لسانه كما كان يكتب عن المرضى
النفسيين، وهل سيتحرك حركات لا إرادية مثل التي صورها
في قصصه، وأصبح يخلد إلى النوم تاركا جواله على وضع
التسجيل، ليرى هل سيقوم بعمليات هلوسة في اللاوعي أم
لا ؟

بدأ يعيد قراءة قصة أخرى من القصص التي كانت
مثار الجدل، والتي كتبت زوجته ملاحظاتها على إحدى
صفحاتها بالقلم الرصاص Schizophrenia بدأ يقرأ، لم

يلاحظ أي شيء يدعو للغرابة في بناء القصة التي قرأها، كل الذي لاحظته أن زوجته أصبحت تخفي مذكراتها عنه، وأصبح شغله الشاغل هو البحث عن ملاحظاتها بين طيات الكتب، لكنها لم تستطع أن تخضعه لجلسة من جلسات العلاج التي يخضع لها المرضى الذين تساعدهم، كان فهمه وعقله الكبير يقف حائلا أمام كل محاولاتها، لم يكن أمامها إلا أن تجرب طريقته .

لقد أصبح صديقي شخصا غريبا في فترة قصيرة، كان يريد كل شيء منضبطا تماما، يريد للشارع أن يكون هادئا بلا أطفال، وكأننا نعيش في (جاردن سيتي)، كل شيء عنده بموعد، النوم بموعد، والاستيقاظ بموعد، والأكل بموعد، حتى لو كنت غير راغب في هذه الأشياء، عليك أن تتصاع للأوامر، حتى لا يضاف اسمك في قائمة الأعداء، وإذا قال لك هذا شيء طعمه جيد فابتسم له وأظهر أنك لم تذق أشهى منه في حياتك، وإن قال إن ملحه ثقيل فأظهر أنك لم تذق أثقل من هذا الملح في أي مكان .

حاولت زوجته كتابة القصة، وأفلحت في أن تجذبه كثيرا لقراءة قصصها الموجهة، وبدأ يعطيها توجيهاته كما كانت تفعل هي من قبل، تركت قصتها على المكتب وحرصت أن تضع ورقاتها بشكل غير مرتب، كان عنوان القصة جذابا إلى مدي بعيد (مملكة المرضى)، جلس على الكرسي، ووضع رجليه كالعادة على ظهر المكتب وبدأ يقرأ: كنت أحرص دوما على سماع الكروان، وكم تمنيت أن أراه لكنني لم أستطع، لكنه كان يحكي لي وأحكي له، كنت أحب الجلوس وحدي، لا أدري لماذا؟، وقد دخلت هنا مخيرا وكان على أن أختار القسم الذي أفضل البقاء فيه قليلا حتى تهدأ أعصابي كما قالت زوجتي، ومن حسن حظي أنني دخلت هذه المستشفى ليلا، كان المرضى ينظرون إلى نظرة الأفارقة لمن جاء يستكشف أدغالهم، كانت نظرات الدهشة تملأ هذه العيون المفتوحة على مصراعيها لكن الحركات تحدث دون صوت هذا هو العجيب في الأمر، كلما مررت على عنبر تحرك من فيه صوب الأبواب يراقبون تحركاتي دون صوت، وكأنني أشاهد فيلما صامتا، كانت أسماء

العنابر مثيرة للفضول (البورصة) (الكيف) (النساء) (الشهرة) لكن غرف هذه العنابر كانت مضاعة، والنزلاء ما يزالون يقضون لكن أعينهم لا تكاد تتحرك داخل أجفانهم، كان العنبر الأخير مريحا بالنسبة لي؛ لأنه يقبع في نهاية الصالة التي تمر على العنابر الأربعة مما يجعله مكانا مميزا لمشرفي الدور، وهذا بالفعل ما عرفته قبل أن يكتب على بابه (ألفيس).

كان هادئا لدرجة مثيرة، وكانت الأنوار مطفأة، وكل النزلاء قد خلدوا إلى النوم، لم أسأل المشرف عن طبيعة العنبر ولا عن سبب تسميته، كل ما كان يشغلني في هذه اللحظة هو موقع سريري، فهناك سريران شاغرآن أحدهما قريب من الباب، حاولت الجلوس عليه، لكن المشرف أخذ بيدي إلى حيث يقبع السرير الآخر في نهاية الغرفة، ثم انصرف دون أن أسمع دبيب نعليه .

هل كان تفكيري صائبا حين جئت إلى هذه المستشفى؟، وهل هذا المكان مناسب بالنسبة لي؟، سئري ما ستسفر عنه الإقامة في عنبر (ألفيس)، ولم يشغلني

الاسم كثيرا، فزوجتي لا تفتأ تذكر أسماء شخصيات مشهورة في علم النفس، ولست لا شك في أن (ألفيس) أحد علماء النفس العظام الذين أعرف منهم سيجموند فرويد وديفيد هيوم لا أبالغ إن قلت إنها المرة الوحيدة في حياتي التي أخلد فيها إلى النوم دون أن أسمع أي همس، لقد نمت نوما عميقا و ممتعا، لكنني لم استيقظ استيقاظا عاديا مثلما كنت أصحو على صوت زوجتي وهي تصيح في طفلها الذي يعدو في الشقة هنا وهناك، ويعبث بالأطباق والتحف المصفوفة في النيش، لقد رأيت ستة رؤوس تميل على مثلما تميل النخلة التي توشك لفرط انحنائها أن تقع، ولم أر في هذه الرؤوس إلا عيوننا تحمق كان المنظر مرعبا حقا، لكنني تماسكت قليلا، وأتقنت تمثيل دور النائم الذي أخذ يتثاءب، ويمد يديه مستقبلا نهاره الجديد، كان الجرس يدق عاليا، ولا أدري ما وظيفة هذا الجرس، لكن موقعي مكاني من رؤية الأشخاص الذين في العنابر الأخرى وهم يهرولون باتجاه السلم، وكأنه جرس إنذار ينتظر منه إخلاء الموقع، وقعت عيني في أعين كثيرة مازالت تحمق في، وتكاد عيني

تقول لهم: لماذا لم تذهبوا معهم أنا لا أفهم ماذا يحدث هنا، سمعت مشرف الدور من بعيد وهو يهتف بصوت عال (الفيس)، وكأنه كان يشرع المسامير الحديدية في وجه مغناطيس قوي، فقد جذبت كلمته هذه الرؤوس الست التي كانت تحيط بي على الفور وبقيت أنا أتناعب وأتمطع على السرير مستمتعا بهذا القسط الوافر الذي أخذته من النوم .

لاحظت (شربات) بعد قراءة القصة أن الأوراق قد رتبت بشكل صحيح، مما يعني أنه قرأها بالفعل، كما لاحظت أنه لم يعد يهتم بالمرأة، لقد استجاب أخيرا فقص شعره وقلم أظافره، ثم بدأ يستجيب للجلوس على مكتبه، في انتظار أن ينزل عليه الوحي الذي خاصمه، وقبل أن يأخذ حمامه الصباحي، كتب في منتصف الورقة عنوانا لقصته الجديدة (رائحة الخوف) وكتب:

رأيت الشرر وهو يتطاير من عينيها اللتين لم أتبين بعد لونهما، إنها المرة الأولى التي أراها غاضبة إلى هذا الحد، ألقت رضيعها يحبو على سجاد الغرفة وأخذت

تحكي، لم أكن في شغف لسماع الحكايا بقدر ما كنت شغوفا لرؤية دمعة واحدة تذكر العين بوظيفتها الثانية .

دق جرس الهاتف، فانقلبت الحدة لينا إلى أقصى درجة، كان علي أن أقنع نفسي أنها والدة الطفل الذي أخذ يتجول في المكان، وتولد لدي فضول لمعرفة الطرف الذي كان يهاثفها لقد كانت إدارة الحوار سحرية إلى أقصى درجة، كان علي أن أتناول قهوتي التي نسيتهها لخمس دقائق، ومع الرشفة الأولى لاحظت رموشها وهي تتقارب وتتباعد في سرعة، لقد أهملت طفلها يلهو في جنبات الغرفة، وخشيت أن أبدي اهتمامي به حتى لا أقطع عليها سكونها المفاجئ .

لاحظتها وهي تقف ممسكة بهاتفها ومكالمتها التي استمرت لأكثر من عشر دقائق، كنت ألاحظ الطفل الذي تعلق بالستارة أقصى اليمين، ثم أعود فألاحظ حركة يديها وهي تحاول التقاطه لتضمه إليها في حنو، لكن ذلك لم يحدث فقد لاحظت طرف ثوبها وهي تغادر غرفة الكشف مشغولة بمكالمتها الهامة .

لم أرد إزعاجها للمرة الثانية، لكنني فتحت الستارة التي تعلق بها الطفل وهو يحاول الوقوف .. فلاحظتها وهي تعبر الطريق، قبل أن تنبهني عاملة الاستقبال أن المريضة لم تترك رقم هاتفها .

بعد قليل دخلت امرأة منتقبة تبحث عن طفلها، وبالفعل ابتسم الطفل عندما سمع صوت أمه، وانتظرت أن تمشي لكنها ظلت جالسة حتى دخلت صديققتها مرة أخرى، الغريب أن أم الولد هي التي كانت تبدو عليها أعراض المرض، لكنها ظلت تتحدث على لسان صديققتها حتى كتبت لها العلاج .

الطريق

هل يمكن لي أن انام بعد هذه الجرعة الدسمة من
العواطف التي تجرعتها طوعا ظهيرة اليوم ؟، وهل عليّ
أن أقطع حبل الخواطر التي أخذت تتثال عليّ، حاملة
عبق الماضي والذكريات العذبة التي لا زلت أعيش
على ذكراها؟

ما أبهى الساعة التي قضيناها حين تقابلنا في ذلك
(السنتر) الكبير الذي يقصده العامة لشراء ما يحتاجونه
من ملابس، وما أنقى تلك النظرات التي عملت على
استنفار العواطف وتكثيف المشاعر، فقد كانت السنوات
التسع التي مرت دون أن اراها كفيّلة بأن اختلس النظر
المرّة بعد المرّة إلى وجهها الذي زادت السنوات إشراقا،
إنها لم تزل طفلة في عيني منذ رحلتُ من المكان الذي
كنت أسكنه، حين كان مسموحا أن أرى ضفيريّتها
الكثيفة، وسلاسل الحرير الأسود التي تتثال منها.

كنت أسأل نفسي وأنا أقلب الأقمشة : هل لا تزال
مرحة تحب النكات كما كانت من قبل ؟، وكنت
ألاحظها وهي تختلس النظر باتجاهي، وتحاول أن ترسم
بسمة على وجهها، لكنها لم تكن ابتسامة صافية مثل
التي كانت تتير وجهها من قبل، لقد سمعت أنها سعيدة
كل السعادة بزيجتها المريحة التي كانت ترجوها أمها،
لكنها ما تزال طفلة في عيني .

لم أسأل نفسي عن سر اختيار هذا المحل القريب
من سكني، والذي يبعد عن البلدة مسافة يقطعها
الميكروباس في نصف ساعة، لكنني سألت نفسي وهي
مقبلة عليّ بنفس الابتسامة التي كنت أعرفها من قبل،
وكأن شيئاً ما قد حدث، هل أعرض عليها التوصيل إلى
حيث يقبع موقف الميكروباس أسفل كوبري المحطة ؟
هل أبدأ التتقيب في ماض ظننت أنه انتهى فإذا به
يعيدني مراهقاً بعد الأربعين؟

لم تترك لي فرصة حتى لمجرد التفكير، فقد مدت
إليّ يدها محملة بأجندة رقيقة للعام الجديد، فقربت إليّ

المسافات، سمعت فيها صوت الطفلة التي كانت تستعير ماكينة الخبيز من أمي صباح كل خميس، ثم تقف مضطربة تفرك يديها وتفرقع أصابعها وهي تنتظر إلى شرفتي أملا في أن أخرج فأسأل أمي عن اسمها كما حدث في المرة الأولى.

(سعيدة جدا برؤية حضرتك اليوم) كانت هذه الجملة التي نطقتها في خفة - شرارة الانطلاق لحديث استمر قرابة الربع ساعة، رأيت فيها شغفها في الحديث عن منجزاتها في مجال التعليم، وأنها في طريقها للحصول على الماجستير، وكل أملها أن تتصور وهي تحمل الرسالة بين يديها كما رأيتني أحمل رسالتي في الصورة المعلقة في غرفة جلوس بيتنا القديم، وأنا أعيد إلى ذهني صورتها وهي تحضن كتابها في طريقها إلى درس الرياضيات، وحركتها التي لا تنقطع باتجاه حجابها حتى تطمئن إلى ستر ما انسدل من ذوائبها الحريية .

أربعة عشر مطبا صناعيا في طريقنا إلى موقف
الميكروबाص لا أدري كيف عبرتها دون أن أستعمل آلة
التبويه ولو مرة واحدة، مغتاظا من جشع سائقي
الميكروباص في الطريق كما كنت أفعل، إنني حتى لم
أعلق على بائعة الليمون التي تنثر أولادها على المطب
التاسع في انتظار السيارات الفارهة التي يجرحها النقر
المكرر على الزجاج، فيضطر صاحبها إلى إخراج ما
يجود به، شفقة على الطفلة التي تصطك أسنانها من
شدة البرد .

كان الطريق يسير طبيعيا كما سارت السنوات
التسع، قبل أن تهاتفني زوجتي لتخبرني أنها في
انتظاري على بعد أمتار قليلة، كان عليّ أن أسرع في
تشغيل مروحة السيارة، لطردها ما تبقى من رائحة أنثوية
قد تصطدم بأنف زوجتي فتقوم الدنيا ولا تقعد، ثم سرت
في طريقي إلى البيت، وكل أمني ألا يكون في الأجندة
التي تقلبها بين يديها ما يدل من أية جهة أن امرأة
أهدتها لي .

أسندت رأسي كالعادة إلى حجر أُمي، ووضعت ساقي اليمنى فوق اليسرى، وأغمضت عيني وأُمي تحاول أن تعيد ترتيب خصلات شعري الذي عمه البياض في حنو ودفء، كانت المواقف الحزينة التي مررت بها في الآونة الأخيرة تتبخر من رأسي كما يتبخر بخار الماء من كوب الشاي الساخن الذي وضعته قريبا مني .

لم أحاول أن أفتح عيني ولو مرة واحدة، بعد أن أعادت الجلسة إلي تاريخا من السعادة والذكريات الطفولية التي كنت أحتمي فيها بحجر أُمي عندما أرواغ أخي في لعبة الاستخفاء أو الغمضة، إنها جلسة استشفاء قلما يحصل عليها من بلغ الأربعين من عمره.

انتبهت أخيرا إلى أن رأسي لا تزال في حجر أُمي، فقبلت يدها التي لا تكاد تحركها إلا بصعوبة بالغة، وأشفقت على فخذها النحيل الذي تحمل رأسي لنصف ساعة أو يزيد، وانتبهت إلى أن كوب الشاي الذي كانت تتطاير أبخرته . قد أصبح باردا مثل ماء الصنبور،

فحاولت أن أرفع رأسي، وإذا بيدها الحانية تعيدها إلى حيث كانت وهي تقول:

لم حملت نفسك فوق طاقتها يا بني ؟، إنها المرة الأولى أراك فيها مهموما كل هذا الهم.

فكرت كثيرا في أن أبوح لها بمكنونات صدري، لكن يدها التي مست خدي بصعوبة ذكرتني بما حدث لها عندما أخبرها أخي بنيته في أن يتزوج من أخرى، بعد أن رأت أن يرتبط بابنة خالي الجميلة المطيعة، التي تحبه حبا جنونيا، مع علمها بأنه كان قاب قوسين من الارتباط بزميلته التي يحبها وتحبه منذ أعوام ؟، فهل أستطيع أن أعترف أمامها بأن حبي القديم قد بدأ يلوح في الأفق بعدما هاتفتني زهرة، وسرى دفء صوتها في أوصالي، بعد أن فقدت هذا الدفء عشر سنوات كاملة، لم أكن أعرف عنها أي شيء؟

لقد كتب الله على أخي ألا ينجب من ابنة خاله، وما أن علمت أُمِّي بالأمر حتى أصيبت بشلل في ساعدها، فكيف أخبرها عن حالي، وقد رزقني الله

بولدين يفيضان على الأسرة كل ما تحتاجه من سعادة
ومرح ؟

دق جرس الهاتف المعلق في الشاحن أعلى
المنضدة في نهاية الصالة، فهرولت إليه مسرعا، ثم
عدت إلى مجلسي بعد أن قرأت الرقم، وتأكدت أنه نفس
الرقم الذي كان مصدر سعادتي منذ أيام، وما تزال
الخواطر تتقاذف إلى رأسي وأنا في طريقي لأكمل جلسة
الاسترخاء التي لم أحصل عليها منذ سنوات، وما إن
وضعت أمي يدها على خدي حتى تردد في أذني قولها
تتصح أخي : (إن أي لقاء يجمع الرجل بمن كان يحبها
قبل الزواج لا بد وأن يصير في النهاية إلى لقاء رجل
وامرأة)، ثم رحت بعدها في سبات عميق .

تحت الشجر

لم يكن وقتا عاديا ذلك الذي كنت أدلف فيه إلى ظل شجرة، كي أستريح من طول المسافة التي أقطعها سيرا على الجسر كل عصرية، مصطحبا أحد الكتب التي تحتاج إلى تركيز في المذاكرة، مما كان يوجب عليّ أن أستجم قليلا حتى أتابع الرحلة، قبل أن تداهم وجهي أسراب الناموس التي تخرج قبيل المغرب، بحثا عن فريسة مناسبة.

كنت أسأل نفسي أحيانا : لماذا هذه الشجرة بالذات؟ هل لأنها قريبة من شجرة التوت التي كنت ألنقط الثمار التي تقع أسفلها أحيانا؟، أم لأن أصحابها يتعهدون ظلها بالرش والنظافة، مما يجعله مكانا خاليا من الحشرات والزواحف؟، أم لأنها قريبة من طلمبة المياه التي دائما ما ينعشني مأوها البارد؟، أم لأنها قريبة من عشة (عاف)، وهي الفتاة الوحيدة التي تصطحب ماشيتها

كل يوم، وتعود بها آخر النهار، مذ أصبح والدها طريح الفراش.

كان لعفاف ابتسامة ريفية أشبه بضوء الصباح حين يغادر عتمة الليل، لم أكن أعرف عنها إلا ما أعرفه عن أصحاب الحقول التي كنت أمر عليها، عرفت اسمها حين تشاجرت مع أحد الشباب الذين كانوا يحاولون معاكستها على الطريق، لكنه كان سافلا في معاكسته لها، إذ لم أتصور أن تجرح أذني مثل هذه الكلمات التي كان يقولها في ثقة، لكنها لم تكن على قدر من الجمال الذي يدفع شابا في مثل حسنه لمعاكستها .

كل ما كان يشغله عندما قابلني بعد يومين أن يتأكد من أنني لا أعرفها، وعندما أكدت له ذلك، عاد فكرر نفس الألفاظ التي كان يقولها لها قبل يومين .

_ سييك منها دي بنت أي كلام .

_ الله يسامحك يا أخي .

_ والله العظيم بنت أي كلام .

تذكرت كل مادار بيني وبين الشاب، عندما رأيت مصطفى قبل يومين وهو يخرج من العشة التي كنت أستريح بالقرب منها، كنت أتساءل : ماذا كان يفعل مصطفى هنا في هذا الوقت ؟ إنني أعلم أن أوراق العنب تكسوها بطريقة جميلة وتظلها شجرة توت عتيقة لا يشعر المار تحتها أن الجو حار، لكنها لا تخص مصطفى، إنني أحبه مذ كنا أصدقاء في كتاب القرية، حين كان يأتي وإخوته على حمار ضخم من العزبة المجاورة، كل ما أنا على يقين منه اننا بالقرب من العزبة التي يسكنها، فهل كان مصطفى نائما فأيقظه صوتي ؟ لقد رأيته وهو يختلس النظر إليّ، لكنه تجاهل رؤيتي وغاب وسط عيدان الذرة .

استرحت أخيرا في ظل التوتة وأنا أفكر في الطريقة التي زاغ بها مصطفى، ولم أستطع التركيز في مسائل الفقه التي كنت أحاول مراجعتها، فقد أثارني ذلك الشعبان الذي رأيته يمر في التربة المجاورة مستمتعا ببرودة الماء، وتذكرت عمي فوزي الذي لقي حتفه عندما لدغه

ثعبان مثل هذا وهو نائم بجوار البرسيم في الحقل،
فانتفضت قائما وابتعدت عن المكان، لكنني عدت بعد
خمس دقائق أبحث عن قلمي الرصاص الذي سقط مني
هناك، حتى لا أعود إلى البيت، فالاختبارات على
الأبواب، وأنا لا أعلم يقينا أين سقط القلم، لكنني
سأبحث عنه ما استطعت.

(ازيك يا أستاذ أحمد)

أتاني صوتها الأنثوي الذي أذكره، لكنني أعرف جيدا
أنها لا تأتي إلا قبيل المغرب لتذهب بالمواشي إلى
البيت، لاحظت وجهها النحيل القمحي وهو يذوب في
شباك العشة الصغير وأنا أولى وجهي في طريق العودة
بعد أن عثرت على قلمي المفقود، لكنني سمعت
الصوت مرة أخرى (أستاذ أحمد)، يبدو أنها هنا بالفعل،
التفت غير واثق من أنني يمكن أن أراها في هذا
التوقيت، لكنني رأيته بالفعل، ولا أدري لماذا ابتسمت
لها ابتسامة عابرة ومضيت، كنت أفكر في سر مجيئها
في هذا التوقيت، وأفكر في دروس الفقه التي يبدو لي

أنها لن تراجع في هذه الظهيرة، إن عليّ الآن أن أستريح في مسجد العزبة قليلا حتى صلاة العصر اتقاء لشر هوام الأرض، والأفكار المضطربة التي أخذت تتواتر أمام مخيلتي .

نسيت أن أتوضأ وأصلي ركعتين، قبل أن أستند إلى حائط المسجد، هاجس شيطاني كان يرسم لي مشاهد لم أتيقن من صدقها : متى جاءت عفاف ؟ وهل كانت الدقائق الخمسة التي غادرت فيها العشة منشغلا بكتاب الفقه كافيه لأن تعود إلى العشة وتجلس، ثم تخرج وهي تحاول ضبط طرحتها القصيرة رمادية اللون .

استلقيت أخيرا بجوار القبلة أملا في خطف نصف ساعة قبل صلاة العصر، لكن ذلك لم يحدث، فقد لمحتها تمرّ أمام المسجد، معقول ؟ ما الذي أتى بها إلى هنا ؟ إنني أعلم أنه ليس لها أقارب في العزبة، ولم أرها طيلة عامين تسير باتجاه العزبة كانت حاجتي للوضوء كافية للاقتراب من الساحة الخارجية التي يفصلها عن الشارع جدار لم يكتمل، ثبتت عليه

مجموعة من الألواح الخشبية، بينما سمح الشباك الخارجي لي أن أراها وهي تملأ زجاجة من الثلجة الخارجية الملتصقة بجدار المسجد، لكنني لم أصدق نفسي حين رأيتهما تشير بعيدا وتبتسم، ومصطفى في الشرفة المقابلة يبتسم ابتسامة عريضة ويشير بأصابع يده التي يخفيها فوق جدار الشرفة (باي باي).

وعندما ذهبت للوضوء، أحسست برد الماء وهو يحاول تخفيف نبضات قلبي المتسارعة، وكأن كل قطرة كانت تمس جسدي وقتها تقول لي : إياك أن تذاكر تحت الشجر مرة أخرى .

الوجه الآخر

بدأ يظهر لي مذ كنت طفلا صغيرا أنام إلى جوار جدي في غرفة قديمة مخيفة، لا يربطها بالفضاء الخارجي إلا كوة صغيرة كانوا يسمونها (المنور)، ماذا كنت أرى ؟ وما الذي كان يجعلني أخاف إلى هذا الحد المرعب، وهل كان الذي يتدلى من المنور وقتها سلسلة فضية كنت أحسبها حبالا، يمكنني من خلاله أن أصعد لأعائق ضوء القمر الذي طالما ناداني، وأقسم جميع من رأوني وقتها أنني قطعة منه ؟ أم أنه ذلك الشبان المخيف الذي لمحته مرات فوق السطح يستمتع بحمامه الشمسي فوق حبات القش المنتشرة هنا وهناك، وكلما حاولت أن أقذفه بالحجر خشيت أن ينزل في الليل على درجات السلم والكل نيام، ليقترض مني ويلدغني، لأنه لا يترك حقه كما قالت جدتي .

هل كان كل ما رأيته عبارة عن أحلام رأيت فيها تطلعي لاكتشاف العالم الخارجي من حولي كما كان يفسر علماء انفس ؟ فليقل علماء النفس ما يقولون، لكن

الكائن الذي ظل يتشكل أمامي في فترة الطفولة كان طاقة نور تظهر من خلال ستارة أشبه بستارة المسرح، تتطوي على وجه أنثوي منير، كأنه لوحة فنان بديع الصنع، أجهد نفسه فيها بالفحم والرصاص، ثم سكب عليها مزيجا من اللبن الخالص حتى كاد الوجه يشع نورا، إنها دائما ما تبسم لي، لكنها ما تلبس أن تضع إصبعها على فهمما، طالبة مني أن أسكت، وطفولتي الخائفة كانت تنفذ المطلوب بحرفية عالية.

كنت أستمع بحكايا جدي التي حفظت أكثرها، وبطانيته الخشنة الثقيلة التي كنت أحسها سقفا قد ألقي على صدري فلا أستطيع منه فكاكا، كان جدي ينام نوما عميقا، نوم رجل خلا رأسه من الهموم والطمع فيما عند الناس، كنت أسمع شخيره عاليا بأذني، وأحاول أن أدفع الغطاء بكل ما أوتيت من قوة فلا أستطيع، لكن عيني تظل مسلطة إلى حيث يمتد حبل في زاوية الحجرة تحت (المنور)، حيث تعلق كل الثياب التي لا تستعمل، ومعظمها قاتم اللون، تعلوه ثياب جدتي وعماتي، وأنا في انتظار الموعد الذي لا يتخلف أبدا،

فحيث يغفو البدر ولا أكاد أبصر كف يدي في هذا
الظلام الدامس، يظهر ذلك الوجه الأنثوي ببهاءه الفريد
طالباً مني أن أهدأ وأسكت، وكأنه أتى من العالم الآخر
ليطمئن عليّ، وحينما يظهر القمر، تتدلى السلسلة
الفضية، وتتلوى كما يتلوى الثعبان .

سيصدقني (علي) بالتأكيد إن حكيت له كل ما
يحدث لي، كان صديقا مسلّيا إلى أبعد حد، دائما ما
كنت أسرح بخيالي بعيدا لكنه يصدقني، كنت أقنعه أن
في التلفزيون صورا كثيرة، لو فتح المكان البارز الذي
في خلفية التلفزيون، ثم نفّض الغبار عنه استطاع
رؤيتها بكل سهولة، وهذه الصور لكل الأفلام
والمسرحيات التي عرضت منذ بدأ البث التلفزيوني إلى
هذه اللحظة، لكنها مصورة بالأبيض والأسود.

لقد كنت أحاول تفسير عمل هذا الجهاز العجيب
الذي يستطيع نقل الصور عبر الأثير، وترجمتها إلى
أصوات وصور، كان الطريق إلى بيت علي محفّوفا
بالمخاطر، فإلى جوار البيت جرن كبير، تشون فيه
عيدان القمح والبرسيم والفلول، تمهيدا لدرسها، وعلى

مقربة منه توتة كبير، ما إن أمر تحتها حتى أسمع همسا وحركة، وكأن أشخاصا يتناجون، وقبل أن أصل إلى باب الحارة المظلمة لا بد أن يقف شعر رأسي، تحية للحديقة العظيمة التي تفصل غرب القرية عن الزراعات والترعة، وما إن أمر أمامها حتى يخترق الطريق عائدا من البيوت شيء سريع كلمح البصر، لا أستطيع الجزم بأنه ثعلب، إذلم أكن رأيت الثعلب إلا في الخيال، وعلى مرمى البصر يسدل ستار الظلام الأسود، وأرى الوجه الملائكي الأبيض، فأحس بدفع غريب، وأشعر أن أي شيء مما مر لا يستطيع أن يرهبني، إنه وجه أُمي، أخيرا رأيت أُمي على ناصية الحارة تنتظر الطفل الصغير الذي كان يصارع الخوف في داخله حتى يستطيع أن يكون رجلا يوما ما، إن قلبي معلق بها وقلبها معلق بي، وما أن تضميني إلى صدرها، وتحملني على كتفها حتى أبتسم للأماكن المخيفة وأكاد ألوح لها من بعيد (باي باي)

كلمتين وبس

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تهاقني فيها لتكرر مجموعة من الكلمات بنفس ترتيب الحروف، وكأنها مسجلة على شريط كاسيت، كانت تقابلني بالقبلات الحارة والابتسامة العريضة التي تملأ وجهها البض، وكأنها ليست المرأة التي تحدثني كل صباح، ولولا ثقتي الكاملة في صوتها لظننت أن شخصا يهاقني من جوالها .

لم أحك لزوجي أي شيء عن هذا الفعل، كنت أخشى أن يظن أنني لم أسدد لها ما كان دينا في رقبتنا قبل شهور، وأنني بالغت في متطلبات رمضان حتى أتوسع في عزومات الأهل والأصدقاء، لكنني أوصيت طفلي أن يرد عليها، وتعمدت فتح مكبر الصوت لأسمع ما تقول، لكنها لم تنتبه إلى صوت الطفل، وأعادت نفس الرسالة في المرة الأولى، بنفس ترتيب الحروف،

وفي المرة الثانية حدثتني حديثا طبيعيا كما كانت
تتحدث من قبل.

إنها الوحيدة التي اصطفتيتها من جارات الشارع،
لأمانتها وحبها لي، لم تفارق الضحكة وجنتيها إلا سنة
كاملة، قضتها باكية على وفاة ابنتها الكبرى، بعد رحلة
مع المرض دامت لعامين، وانتهت في مستشفى خاصة
أخذت كل ما تملكه الأسرة من زينة ومتاع .

لاحظت أن الاتصال المضطرب دائما ما كان يأتي
في وقت ثابت لا يتعداه إلى غيره، فمع دقائق الثامنة
صباحا، وبعدها يأتي صوت فؤاد المهندس عذبا في
برنامج (كلمتين وبس) يأتيني صوتها باكيا :

(أحتاج ألف جنيه يا سعاد...المستشفى طلبت المبلغ
مني اليوم ضروري)

ثم تغلق الهاتف دون انتظار الرد .

اضطرت أخيرا لمصارحة زوجي، فأشار عليّ أن
تعرض على طبيب نفسي، ورغم أنني لم أتقبل الفكرة

بسهولة في البداية، لتاريخها الطويل في حسن تصرف الأمور، إلا أنني وافقت، وكان عليّ أن ألجأ إلى الحيلة كما أشار عليّ زوجي، وكأنا ننفذ سيناريو عمل درامي رأيته على شاشة السينما، فقد أخذتها معي لأمثل أمام الطبيب ما كانت تصنعه معي بحرفية شديدة وكأنني أنا المريضة، كانت تقف واجمة بالقرب من الطبيب، وكل الذي يتردد على لسانها :

(ألف سلامة عليك يا سعاد، ربنا يفرحك بأولادك يا رب)
نصحتني الدكتور ببعض النصائح لدرجة صدقت معها أنني مريضة بالفعل، وكتب لي بعض الأدوية وانصرفنا، وهي ممسكة بالروشتة، وكأنها متعلقة بها تعلق الغريق بالقشة، لم تتركني لحظة واحدة مذكّر الطبيب أمامها أنني مريضة بالشيزوفرينيا، أوصيتها أن تكتفي بشريط واحد مما كتبه الطبيب، وتعمدت ألا أدخل معها الصيدلية، كنت أراقبها من خلال الزجاج وهي تدس شريطاً من كل نوع في حقبيتها في ارتباك، وقلبي

يخفق بقوة، ويكاد في شغف يقول: يارب اشف أختي
التي لم تلدها أمي .

لم تمر ساعات الصباح الأولى مثلما تمر علي كل
يوم، فقد قربت الهاتف من النافذة حتى أضمن جاهزية
الشبكة، ورفعت بطاريات السخان ووضعتها في الرايو
حتى أتمكن من سماع البرنامج، لأن التيار الكهربائي
كان قد انقطع منذ ساعتين، انتهى (فؤاد المهندس) من
برنامجهم مثل كل يوم، ودق الهاتف بعد موعده بنصف
ساعة تقريبا، وجاء صوتها باكيا:

(لست متأكدة إذا ما كنت أخذت الألف جنيه منك
مرة أو مرتين يا سعاد، لكن يخيّل إلي أنك دفعت مرة،
وزوجك أعطى زوجي مرة، لقد قبضت الجمعية الكبيرة
التي كنت أجمعها لزواج (ندى) ... الجمعية أتت
و(ندى) راحت يا سعاد ... (ندى) راحت يا سعاد ...)
كررت الجملة الأخيرة مرات لا أدري عددها، وتخشب
أمام الهاتف لا أدري ماذا أقول لها، وماذا أقول للطبيب

الذي سندهب إليه بعد يومين، إذا سألني هو الآخر عن
الآلف جنيه ؟

تماسكت قليلا، وانتظر زوجي معي، ولم يخرج
لعمله في الصباح، بعد أن أكدت له أنني ذهبت إليها
في البيت بعد نصف ساعة من الاتصال، وكانت في
منتهى الهدوء والرزانة، دق جرس الثامنة كالعادة،
وأشجانا فؤاد المهندس بصوته العذب، ولكن الهاتف لم
يدق، قرب زوجي الهاتف من النافذة، ولكن الهاتف لم
يدق، ارتدى سترته في ثوان ونظر إلي في غيظ وكأنه
يتهمني بتأليف روايات لا أساس لها من الصحة، ثم
خرج مسرعا .

بدأت أشك في تصرفاتي أنا، وبدأت أراجعها في
اليومين الأخيرين، راجعت علب الأدوية التي اشترتها
جارتني من الصيدلية قبل يومين، لأتأكد من أنني لم آخذ
حبات منها، وأخذت عددا من الأرغفة الطازجة التي
كانت تحبها وذهبت إليها، لم تكن الإضاءة مناسبة في
الدور الأرضي بالدرجة الكافية، رغم أن الساعة قد

تجاوزت العاشرة، أشارت ابنتها الصغيرة إلى الغرفة المظلمة التي خصصت قبل ثلاثة أعوام لجهاز (ندى)، كان الباب مفتوحا كالعادة، لكنني لم أهتد إلى مكانها بسهولة، إذ لا يزال ضوء الشمس الذي صاحبني في الخارج يحجب عني رؤية سرير (ندى) الذي وضعت عليه كل ملابسها، بدأت أتتحق منها جيدا وسط الملابس، كانت تضم إلى صدرها شيئا أشبه بالطفل الصغير، وعندما اقتربت منها قليلا وجدته المسجل الجديد الذي كانت تستخدمه (ندى) قبل وفاتها، كانت تهدده مثل الطفل الصغير بين يديها ولا أدري لماذا، وعندما شعرت أنني بالقرب منها لفته في بطانية صغيرة وقالت : (سمي يا سعاد .. سأذهب لإحضار الشاي)

كانت رأسي تدور، وكأنني أحمل هم الدنيا على عاتقي، لقد كان الحديث في الهاتف عن الألف جنيه هو المشكلة، واليوم احتضان الراديو، ومن يدري ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك ؟

وصل تيار الكهرباء فجأة، فوجدتها تخرج من المطبخ سريعا، لتخطف الراديو في لهفة وتوصله بمقبس الكهرباء، ثم صرخت بأعلى صوتها : (يا خسارة ... خلص البرنامج يا ندى ... يا خسارة يا ندى)، فرأيت أن أنسحب في هدوء، فقد بدأت أشعر بالخوف فعلا، وأخشى ما كنت أخشاه أن تتفرض فجأة، وتنقض عليّ من الخلف وأنا أتسحب مثل اللصوص فتقول لي: من أنت؟ ...ومن أين جئت ؟

كل ما كنت أفكر فيه بعد هذه المحاولة البائسة هو كيف سأصطحبها إلى الطبيب النفسي لتتصت إلى الأعراض التي سوف أرويهها، كيف سأقول إنني وجدت الألف جنيه مرتين، وأنا أعلم أنها ربما كانت صادقة في هذا، لأن زوجي دفع الألف الأولى لزوجها، ودفعت أنا الألف الثانية، بعد أن قرر زوجي أن يشتري ثلاجتها التي عرضتها للبيع، حتى لا يستغل أحد حاجتها للمال، وكيف سأقول للطبيب إنني احتضنت الراديو كما أحضن طفلي الصغير وأنني حزنت جدا عندما انقطع

التيار الكهربائي لأنني لم أسمع (كلمتين وبس) وأنني لم أتصل بصديقتي لأنني كنت أترقب وصول التيار الكهربائي حتى أسمع البرنامج.

اضطرت لتسجيل حلقة من البرنامج على جوالي الشخصي و ذهبت في اليوم التالي بحجة توصيل الخبز الطازج لها، وحمدت الله أنها كانت في المطبخ وأن أحد كشافات الشحن قد عرف طريقه إلى البيت، لكنها سرعان ما دخلت بصينية الشاي وجلست بعد أن أطفأت الكشاف ووضعت في كرتونه وسط كراتين كثيرة قائلة :
(هذا كشاف (ندى) يا سعاد .. أكيد ستغضب إذا عرفت أنني أخرجته من الكرتونة ... بالله عليك عرفها إن الكهرباء قطعت)، أخذت أنظر إلى كوب الشاي الذي بدأت أبخرته في التضاؤل موقنة أنه ربما لم يحن الوقت بعد لشرب الشاي من جديد.

(لا بد من تغيير نمط الحياة إذا كنت تريد تحسين أسرع من العلاج)

هكذا أوصاني الطبيب قبل أن أغادر العيادة مقررا
الإبقاء على الأقراص التي قررها من قبل، وكل ما كان
يدور على لساني أنني لن أستمع إلى كل البرامج التي
كنت أسمعها .

لم يأت اتصال في صبيحة اليوم التالي، لأنها كانت
تطرق الباب قبل الثامنة صباحا، لتطمئن إلي أنني قد
تناولت الدواء، وربما كانت تظن أنني سوف أفتح الراديو
فتعلن غضبها، وأنا موقنة أنها جاءت لتسمع البرنامج
معي، تمددت صديقتي إلى جوارى على السرير، بعد أن
اطمأنت إلى عدم وجود زوجي، وتعلقت عينها بالنجفة
المعلقة في الصالة ثم أخذت رموشها تعلو وتنخفض في
سرعة مذهلة، بعدها رأيت الدموع تنهال من عينيها
الواسعتين وهي تقول : (كانت متعلقة بالراديو لدرجة
جنونية، ورثت هذه العادة من جدها فلم تكن تنام إلا
على صوته، ولم تكن تصحو إلا على أثره، حتى وهي
في محنتها، كانت تحفظ المواعيد وتتابع المسلسلات
حتى صبيحة ذلك اليوم، حيث أخبرتني إدارة المستشفى

بأنها تريد ألف جنيه قبل الساعة صباحا، قمت بالاتصال بكل الهواتف التي أعرفها، لم يكن متاحا منها غير هاتف والدها الذي ينتهي جرس جواله دون جدوى، ماذا أفعل؟، وهل ستأخذ (ندى) الإبرة في موعدها أم لا؟، وفي تمام الساعة أتت الممرضة بالدواء المطلوب بعد أن استجابوا لبكائي المتصل، ثم خلدت (ندى) أخيرا إلى نوم عميق، لم يستمر إلا ربع الساعة، ثم هاجت متألمة من بطنها، محاولة فتح الراديو، كنت أسمع شهيقها العالي وأرى أسنانها وهي تكاد تغوص في شفيتها من شدة الألم، وكأنها حامل تضع حملا متعثرا، كان (فؤاد المهندس) يشدو بصوته العذب (كلمتين وبس) ثم سكت، وإذا بها تضمني بقوة صارخة (ماما بحبك قوي) ثم خرج السر الإلهي بعدها، وكأن المهندس كان يقول لها يا ندى (كلمتين و بس) .

الحظيرة

لم أكن أعرف أن بينهما رابطا عاطفيا لا يمكن لأحد اختراقه، لأنني لم أكن أتخيل أن يحدث ذلك الرابط إلا بين زملاء الفصل أو زملاء الدروس الخصوصية، أما أن تتعلق الفتاة بجارها الذي يكبرها بخمس سنوات فهذا ما لم أعرفه، إلا عندما أوقفني بطريقة مهذبة، ليخبرني بأن عليّ ألا أحدثها بعد اليوم، وبخاصة بعد أن انتهى كل شيء وأصبح كل منا في كلية مختلفة .

استشعرت غضبه مني وهو يخاطبني، وكان معه الحق مئة بالمئة، لكنه لم يعلم أن حديثي معها كان لونا من ألوان البحث عن كل ما يمت بصلة إلى الفتاة التي أحببتها، إنها صديقتها الوحيدة وموطن سرها، وأحسن فتاة في فقه الدنيا، وإن كانت أقل المجموعة حصولا على الدرجات .

انتبهت إلى أنه ما زال يتحدث إلى، وكان عليّ أن أطمئنه إلى أن ذلك لن يحدث أبداً، وهو ما كان بالفعل، فقد تزوجها بعد أربع سنوات في بيت أقل ما يقال فيه إنه أشبه بحظيرة الدواجن، لكنها كانت سعيدة غاية السعادة، لا أحتاج إلا أن أطالع وجهها حتى أشعر بالسعادة، فأشعة السعادة كانت تخرج من وجنتيها مضيئة عبر ابتسامتها الجميلة التي لم أكن أرى فيها شخصها بقدر ما كنت أرى فيها الفتاة التي أعشقها.

بالتأكيد كان يعرف قصتي مع (رغد)، ويعرف كل التفاصيل التي خفيت على كثير من الناس، وبالتأكيد هي التي أخبرته أنني استوقفتها لأسألها عنها، هكذا كنت أحدث نفسي وأنا أمر من أمام حظيرة الدواجن التي يسكنها في طريقي لبيتنا القديم الذي شهدت عشته أسعد أوقات حياتي، لقد أوصتني أمي أن أحضر لها بعض الأغراض من بيتنا القديم، ولم أكن دخلته منذ عام، ورغم أنني لم أصعد السلم إلى حيث السطح الذي كان مرصداً لإشاراتي لـ(رغد) وقت المذاكرة إلا أنني

تذكرت كل شيء، كان التلويح بالكتاب شرارة الانطلاق للذاكرة، وكان انتهاء الساعة موعدا لإشارة أخرى باليد لا أدري كيف أصفها، فقد كان السطح يبعد عن سطحنا مسافة لا تتيح لصاحب النظر الضعيف أن يتيقن من حركة اليد إلا بصعوبة .

كان عليّ أن أمسك بأحدث دجاجتين في الحظيرة التي كانت تحمل ذكرياتي الجميلة، يوم أن كانت غرفة نومي، لم يكن الإمساك بالدجاجتين سهلا كما تصورت، فبعد أن نجحت في الإمساك بالأولى - كانت المعاناة أكثر بكثير في الإمساك بالثانية، وبخاصة وأن ديكنا الهندي لم يكن يخشى شعري الكثيف، ولا العصا التي دائما ما كنت أدخل عليه بها، فكان يهجم علي وكأنني جئت أخطف ابنته الصغرى.

فجأة تذكرت أن عندنا سلاكة كبيرة كانت أُمي تربي فيها الأرانب، وضعت الدجاجتين فيها واحدة فواحدة، ووجدت قدماي رغما عني تصعدان إلى السطح، وتشاهد المرصد الذي لم يعد منه إلا بقايا، هناك رأيت

بقايا عشتا القديمة، وتذكرت المناورات التي كنت أخوضها فوق السطوح بحثاً عن بيض الدجاج، وراء أكوام من قش الأرز وعيدان الذرة الجافة، تذكرت اليوم الذي أرادت فيه ابنة الجيران مساعدتي في إمساك الدجاج، وتذكرت كيف ماتت قطعة صغيرة متأثرة بقدمها وهي تجري وراء الدجاج، وتذكرت حمرة وجهها، وشدة بكائها لثلاثة أيام متأثرة برحيل القطعة، وهي تنتظر إليّ باكية :

. ممكن ربنا يسامحني ؟ لم أرها .. لم يكن قصدي،

سامحني يارب

كنت أحاول إخفاء ضحكتي وقتها، لأنني تسببت في قتل قط كبير قبل ثلاثة أيام، بعد أن وضعت له السم عامداً متعمداً بأمر من والدي، لأنه افترس الفراخ الصغيرة كلها، ولكنني ظللت أتساءل : هل هو تبلى في الإحساس أصابني كما اتهمتني؟، أم أنه جلد الرجل وصبر الرجل على تحمل المشاق؟، إنني لا أنكر أنه قد أصابني الهلع وأنا أشاهد القط في لحظاته الأخيرة،

وكننت أولى منها بالسؤال (هل يغفر الله)، لكنني ظللت
أسأل نفسي : هل كانت (رغد) ستوافق بالزواج والعيش
معي في بيتنا القديم، كما وافقت زوجة صديقي على
العيش معه في بيت أشبه بـ (حظيرة الدواجن)؟

ذهب الليل

قرأت في التحقيقات أن امرأة قتلت أطفالها الثلاثة بعد أن أحرقتهم، فرارا من أن تعير بهم، قرأت وجسدي ينتفض وأنا أحاول تجميع خيوط الألم التي قطعها الأم في هذه الرحلة الشاقة، بدأ التفكير في الأحداث، ثم التدبير لها، ثم التخلص من آخر ذرة إنسانية تجري بين كرات دمها وهي ترفع الآلة لتقتل من كان يوما ما جزءا منها .

كنت أحاول إخفاء ملامح وجهي، حتى لا يسأل أولادي فيصيبهم الرعب، مثلما كان يصيبهم في كل مرة يمر فيها محمود أمام البيت، فيملأ الدنيا سبًا ولعنا، إنني أسمع صراخ (محمود) في كل ليلة، وأدعو الله له بالشفاء، وتدور عيناى غيظا من كل من يتناوله بكلمة، إنه مريض وليس على المريض حرج، وأقل حقوقه علينا أن نكف شرورنا عنه، كل ذلك كان جميلا ورائعا، لكنني لم أسأل نفسي منذ خمس سنوات عن سبب صراخ محمود وبكائه، كل ما أنا على يقين منه أنني كنت أرى الأطفال وهم

يهرولون مفزوعين، وهو يتبعهم بوابل من الشتائم والحصى، لكنه كان يعتمد ألا يصيب أحدا منهم بأذى، إن مجرد جريهم أمامه وخوفهم مما في يده - رغم أن يده فارغة - كل ذلك كان مصدر سعادة غامرة لمحمود، لكن جارتنا قد حطت بالفعل أنه ضرب والدته ضربا مبرحا حتى كاد يكسر ذراعها، لكن كل ما كان يجري على لساني ساعتها هو الدعاء لها بالصبر والتحمل، ثم لا ألبث أن أفتقدها في الشارع لأيام فيقال لي : لقد ذهبت لتزور أهلها أسبوعا كاملا، فأقول لعلهم في رحلة استجمام من هذا الروتين القاسي الذي يفرضه محمود عليهم، ثم أعود فأحمد الله كثيرا على هدوء الشارع وطمأنينة الأطفال الذين يعبرون في وداعة العصافير .

كل ذلك لم يكن مدهشا بالنسبة لي، حتى رأيت أنه وهو يسير أمامي بمفرده، كان علي أن أصدق أنه هو الذي يسير هادئا ومترنا، فربما أخذ علاجه قريبا، وربما أخذته الجلالة وعما قريب سأسمعه وهو يغني بصوته المضحك:

(والله حرام النوم الليلة النوم حرام)

لكنني كنت سعيدا بمجرد مشاهدته على هذه الصورة، ولم يدهشني حقا إلا تأكيد زوجتي أن والدته خرجت تستجم عند والدتها أسبوعا كاملا، ظلت خلاله أترقب أن يثور محمود فيرعب المارة في الشارع لكنه لم يفعل، أن أسمع صوته العالي يخترق الآفاق حتى يسمعه من يمر في الشارع المجاور، ولكن ذلك لم يحدث أيضا بل سمعته يغني وهو يعبر الطريق بحثا عن والده:

(ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صو صو)

لكن الشارع كله قد استيقظ على صوت محمود وهو يضرب باب الجيران بقوة صارخا: (افتحوا...افتحوا يا كفرة...) وظل يردد لها حتى ظهرت والدته من الشرفة تحاول تهدئته، بعد أن اكتشف أنها لم تسافر، وأنها تحاول إخفاء نفسها عنه عند خالته .

اخترقت الزحام بحثا عن محمود وهو آخذ بطوق أمه، وما إن وقعت عيني على عينه حتى ردد قاموسا من الشتائم والحوارات والأفكار فهمت منها أنه جائع، وأن والته دائما

ما تجعله يبحث عن الطعام، ودائما ما تهرب للجلوس عند
الجيران و الأقارب، بل إنها تهرب بالأسبوع هي وبناتها
خشية أن يلحق بهم عار محمود.

الرباط

كنت على بعد ثلاثة أمتار منها، لكنني كنت أسمع صوت زوجتي بوضوح، بينما كانت الحروف تخرج منها مشوبة ببعض الحذر، تقدمت قليلا إلى الصالة و ألقيت السلام، فأتاني صوت زوجتي واضحا وهي تتقدم باتجاهي، لتحمل صينية الشاي التي يستوى عليها كوبان من النسكافيه التي تحبه جارتنا، تعثرت خطاي قليلا حتى تبدأ جارتنا بعرض مشكلتها على زوجتي، لكنها انهارت باكية، وأخذت زوجتي تواسيها، وهي تحاول التثبت من أنني لست قريبا من الستارة المعلقة في صالة البيت كالعادة، كنت ساعتها قد صبيت فنجان قهوتي وعدت إلى المكان المفضل أسترق السمع بشغف، رغم أنني أعرف سبب بكاء جرتي، إذ ليس في الشارع فرد لا يعرف أن زوجها ضربها بالأمس ضربا موجعا لكنها لم تترك البيت والأولاد .

سمعتها تقول : إنها غير واثقة من سبب التقصير ،
هل هو منها أم منه؟، وربما تكون أخفقت في احتوائه
كما تفعل النساء، وربما تكون هي المخطئة فعلا، وكنت
على ثقة في النهاية أن زوجتي ستتادي على بصوت
مرتفع كالعادة، ففي كل مرة تغضب فيها إحدى الجارات
تكون زوجتي هي شرارة الانطلاق، وأكون أنا حلال
العقد، لكن شتان بين (سنا) و (منى) فالأولى (برّاوية)
على حد تعبير زوجتي، يتطاير الشرر من عينيها،
ودائما ما يخرج صوتها عاليا ومثيرا، لذلك كنت أقول
لزوجتي لن أصنع لكما إلا بعض المهدئات (ينسون،
نعناع، كروية)، أما (منى) فالقطة تأكل عشاءها على
حد تعبير زوجتي أيضا .

مازال كلام (منى) عالقا بأذني، فهذه أول مرة تلجأ
فيها للشكوى، رغم سماعنا ضرب زوجها وإهانته لها
مرات متعددة، فلماذا هذه المرة بالذات، ربما لأن أولادها
قد كبروا، وأصبحوا يدركون الأمور، وهي لا تريد أن

تشوه صورة الزوج في مخيلتهم، وربما لأن والدتها قد توفيت، ولم يعد لها في الشارع غيرنا .

نادت زوجتي أخيرا وخفضت صوتي كما قررت سلفا، وبدأت أتحمس المداخل التي أدخل بها لإصلاح ما بينهما، لكنني تعجبت حين أوصتني أن أخفي عن زوجها وجودها عندنا، على أن تظل على اتصال بأولادها دون أن يخبروا أباهم عن مكانها، وكل ما كنت أخشاه ساعتها أن تقرر العودة في أية لحظة دون أن يتعلم زوجها من هذا الدرس القاسي، فقد قررت أن تبيت في الطابق الأرضي تغسل وتطبخ، ولم أشعر بزوجتي إلا قبيل الفجر، تدعو لها بصلاح الحال، بينما كنت أتأهب للصلاة وأفكر فيما ستصير إليه الأمور .

كانت عقارب الساعة في طريقها إلى السابعة مساء، حين دق جرس الباب، ونزلت لأفتح لجارنا الذي تعلق به أولاده مقررين اقتحام المنزل لتحرير والدتهم التي لم تذوق طعم النوم من أسر الطبخ والغسيل، ولم أكن أتخيل أن تسير الجلسة على هذه الصورة، فجارتنا

التي كانت منهارة قبل أربع وعشرين ساعة، لم تستقبل زوجها إلا بابتسامتها المعهودة، وكل ما كان يجري على لسانها لزوجها : (من الذي دلك على مكاني)، ولم يكن في حاجة بالطبع للإجابة، إنه لم يجب بالفعل، بل نظر إلى الأطفال الثلاثة، وغمرهم بابتسامة خفيفة، وكأنه يقول لها : إن من يملك أطفالا رائعين مثل هؤلاء لا يحتاج حتى إلى السؤال يا ست منى .

صلاة الغائب

لم أسمع صوتها، لكنني متأكد من أنها كانت تبكي
وهي تكتب لي :

بالله سأحملك أمانة أن تصلي علي صلاة الغائب،
ما كنت أتمنى أن أموت بهذا الفيروس اللعين، كل أمني
في الحياة ان يصلّي الناس علي هذه الصلاة الأخيرة
في هذه الحياة الدنيا، لكن إذا غلبت إرادة الله فادع الله
أن يغفر لي .

لا أستطيع أن أصف وقع الكلمات على نفسي، فلو
كان لكل حرف حد كالسيف ما فعلت بي هذه السيوف
ما فعلت بي هذه الكلمات الحارة، إنها تكاد من شدة
الألم ألا تبصر ما أكتبه لها، فكيف أهناً بالعيش وهناك
من يعذب، أنا موقن أنه ابتلاء، وأن المصاب مأجور،
لكنني في النهاية بشر ضعيف، ودمعتي قريبة إلى أبعد
حد .

إنها رقيقة كالنسمة وطاهرة كالسماء، وصافية
كحليب الصباح، لم أتخيل يوما أن أراها باكية، وأحمد
الله أن ذلك قد كان من وراء حجاب، لا أستطيع أن
أنسى يوم أن جاءت تزورني وأنا مهموم، كنت أحاول
رسم ابتسامة أبت أن تطبع على شفتي، بينما وقفت هي
تحتضني بعينيها، وكلما راودتها دمعها التفتت لتودعها
مندليها الرقيق.

لقد كانت تمثل لي الدنيا في ثوبها الرقيق الذي
يختال سحرا وجمالا، فما بالها اليوم تحدثني حديث
مودع، ألم تستشعر يوما ما أنني أتنفس برئتيها و أرى
بعينيها وأدفع كل خيالات الدنيا برموشها التي ما وجدت
لها نظيرا.

باءت محاولتي الأخيرة في مهاقتها بالفشل، ترى
مالذي حدث؟، وكيف مر عليها الليل؟، لا زلت أذكر
يوم أُصبتُ في حادث، وفي وقت متأخر من الليل
اقتربتُ من البيت، ولم أشعر إلا وقتها أن لخطواتي
أصواتا يمكن أن تتادي، وحروفا يمكن أن تسمع، كانت

واقفة بانتظاري، لم تمنعها برودة الجو من تلمس أي سبيل للاطمئنان علي، كانت تنتظرني بقلب من طيبة لم أجدها إلا في قلب أمي، ولم تزد عن قولها : حرام عليك... أنا استويت من القلق .

حاولت الاتصال مرة أخرى عازماً أن تكون هي المحاولة الأخيرة لي في تلك الليلة ولم تخني أدني في التعرف على صوتها رغم مرور عقدين من الزمان، حاولت التماسك قليلاً، وأنا أقول لها: طمئيني، فأعادت ما كتبته لي قبل ساعات بصوتها الذي خنقه البكاء فاضطرت لإنهاء المكالمة .

ماذا يمكنني أن أقدم لها ؟ وهل تكفي الدعوات التي خنقها البكاء؟، وهل يكفي الاطمئنان الالكتروني الذي يفلح مرة ويخفق مرات ؟ قضيت ليلتي أفكر وأحلم، وأنجح وأخفق، وأوصي وأتوسل، لكن رسائلي لم تقرأ، ودقات الجوال تكاد تقول لي: لقد مللت طلب هذا الرقم، ولولا أن رصيدي يسمح لقاتل لي:

(هذا الرقم غير موجود بالخدمة)

هل كان من حقي أن استسلم لعاطفتي كل هذا
الاستسلام ؟ وهل هو الحب القديم الذي يحاول التشبث
قبل الغرق بما تبقى من رمل ؟، أخذتني سنة من النوم،
ورأيتها تجري خلف البالونات وتضحك بملء فيها كلما
حاولتُ ففشلتُ في الإمساك بها، إنها نفس الضحكة
الصافية التي كانت تخرج من سويداء القلب، كانت
نسمات الربيع تداعب بالوناتها بشغف، وكانت هي
بفستانها الوردي الرقيق تعدو كالفراشة خلفها، قبل أن
أسمع صرختها، لما سمعت أصوات الفرقة،
فاضطرت لمغادرة الفراش، بعد أن سمعت دقات
الجوال التي تعالت لتخبرني بأن الرقم الذي كنت أحاول
الاتصال به متاح الآن.

رائحة الحب

شيء ما كان يجذبني إلى صورة البروفایل، شيء أقوى من الصداقة، وأقوى من الفضول، وأقوى من فيروس كورونا الذي تجري لنتحسس أخباره، شيء يولد قبل أن يكون جنينا، إنني مقدم لا محالة، ووثاق من أنني سأغرق، ورغم كل ذلك راض كل الرضا، ومستسلم غاية الاستسلام، لكنه سريع الخطى، لا تأخذه بي شفقة ولا رحمة .

كيف بدأ هذا الإحساس؟، متى شعرت به ؟ ليس أمامي وقت لأحكي، ذهبت لأفتح ضلفة الدولاب فإذا بي أفتح باب الغرفة لأجدني في صالة الشقة، لم يكن طبيعيا هذا الكم الهائل من الاعجابات والتعليقات على المنشور الذي طالعه على صفحتها، ربما لأن المضمون كان جيدا ويمس عاطفة الحب، وبما لأن صاحبه أنثى، وربما تكون جميلة إلى مدى ما، وطالما

رأيت الكثيرين يلهثون من أجل التعليق على المنشورات
الأنثوية، سعيا وراء صبوات جديدة.

هكذا كنت أحدث نفسي وأنا أضع أمام تعليقات من
أعرفهم ما يدل على أنني رأيتهم هناك، ليس يمكنني أن
أشارك في هذا المهرجان الكبير، وبخاصة وأنا لا أعرف
اتجاه هذه الشخصية، إنني دائما ما أميل إلى التقويم
والنقد، وطالما أغضب ذلك الكثيرين من أصدقائي،
سواء أكانوا معتدلين، أم كانوا من الذين يحبون أن
يحمدوا بما لم يفعلوا.

كان اسم صاحبة الصفحة مستعاراً، وكان الاحتفال
بعيد ميلادها ميدانا يلتقي فيه الوطن العربي كله، رغم
أنها لم تكن عربية، لماذا كل هذه التعليقات التي تفيض
حبا؟ ولماذا يفيض التعقيب على التعليق صفاء لم
أعده؟، إنها ترد على التعليقات بالترتيب دون انتقاء
كما يحدث من بعض الأصدقاء والصديقات، بنفس
الطاقة، ونفس الكم، ونفس المشاعر، ونفس الصورة
المرفقة .

أدهشتني حقا صورة البروفایل، ليس لأنها صورة
أنثى، وإنما لأنها صورة أقل ما يقال عنها إنها بسيطة،
وإن من اختار تتاسق الألوان فيها فنان، كنت أسأل
نفسی : هل يمكن للمرء أن يدلف إلى بواطن شخصية
ما بمجرد النظر إلى صورتها الفوتوغرافية ؟، إنها وديعة
مثل القطط، مسالمة مثل الحمامة، صافية مثل سماء
الربيع، بريئة مثل طفل يلهو، هل سأكتب لأصح لها
ما رأيت في المنشور الذي أترعه الزملاء والأصدقاء
مدحا؟، إن الصدام يجعلني أكتب بعنجهية، والوداعة
تجعلني أكتب بأريحية، لكن من يضمن لي أن أكتب
بدون عصبية قد تكون نتيجتها إغلاق صفحتي إلى
أجل غير مسمى، يبدو أن النوم سيكون الحل الأمثل
هذه الليلة في مثل هذه الظروف، بدلا من خوض
مغامرة غير مأمونة العواقب، هكذا سولت لي نفسي أن
أعتقد قبل أن أكتب:

. السلام عليكم ... (رائحة الخوف) لا تصلح عنوانا

لهذا النص، وأولى به أن يكون (رائحة الحب)

هكذا قررت أن أترك رسالتي في بريد الرسائل، مطمئنا إلى عدم وجود المرسل إليه في الحالة النشطة، لكن سرعان ما أتى الرد النزيل، حاملا وافر الشكر على تقديم النصيحة في إطار من الخصوصية، إن الانطباعات التي أوحى بها صورة البروفایل تكاد تكون صادقة تماما، إنها (حمامة وقطة وسماء وطفل) ولوحة لا يستطيع التعبير عنها إلا فنان قدير .

كانت ساعات النهار كفيلة بأن تشهد ميلاد شيء ما، إنها قشعريرة حمى قد استمرت يوما كاملا، قضيت معظمه متدثرا ببطانية ثقيلة، لكنني كنت أسأل نفسي كلما خفت الحمى، وأحسست بحبات العرق وهي تحاول مسح جسدي: ما الذي جعلني أجري على البريد الالكتروني في لهفة، مثلما يجري الطفل عند إحساسه بقرب والدته من الباب، رغم أنني أعرف ان الرسائل التي تأتي من حساب غير نشط أشبه ما تكون بطلقات الرصاص التي لا يُعلم متى تأتي؟ ومن أين تأتي؟، إنني أتوقع رسالة ما، رسالة لا تظهر فيها الأنثى

ضعفها الفطري النبيل، لكنني لست أعلم يقينا متى ستأتي؟، بدأت أتصيب عرقا، وكدت أختق، ماذا حدث للأكسجين ؟ مازالت النافذة مفتوحة وما زال الباب رهوا، رجعت إلى البريد فوجدت الرسالة، إنها تأكيد للشكر في الرسالة الأولى، لكنها محملة بعبق فطري محبب، عبق إنساني بلمسات أنثوية ساحرة، كانت يدي ما تزال ممسكة بكمادات الماء البارد، وعيني تجول في الغرفة باحثة عن سبب الاختناق المفاجئ في الغرفة، فلم أجد إلا ذلك الورد الذي ازدحم به البريد، لكن سرعان ما غمرني العرق، وعندها بدأت عيناى تستيقظان .

رائحة الموت

رغم أنه صديق الطفولة، وأنني كنت أمر عليه يوميا في طريقي إلى المدرسة، إلا أن أحدا لا يعلم ماذا كان يقول لي، لقد فتح عيني على ما لا ينبغي أن أعرفه في هذه السن المبكرة، فأسأت إلى نفسي بسببه، وندمت على تلك الصحبة التي طالت لسنوات، كنت فيها جليسه في الفصل، وجاره في البيت، وزميله في اللعب في الحارة، لقد حُبب إليّ التواصل على الانترنت، لكنه توفي قبل أن يقول لي ماذا أصنع مع هذه الفتاة التي اقتحمت علّ حياتي، رغم أننا نعيش وقتا عصيبا، يفر فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، ولم يخطر ببالي أن أعود إلى أحاديث الحب الصببانية، لكن كلمة (ابنتي) التي ترددت في حوار طويل لم تردعها، ولم تقنعها صورة ولدي المثبتة على (البروفائل)، ظلت تستقصي في معرفة مواقفي الشخصية، وحواراتي التي كنت أديرها بين أصدقائي وصديقاتي أيام الشباب، غير مدركة فرق السن الذي تجاوز العقدين، كنت ألاحظ عمدها

لتغيير صورة البروفایل إلى صورتها الشخصية وقت الحديث معي، ربما لم أنتبه في كل المرات، لكنها كانت تفعل.

ما الذي كانت تريده من ذلك التوغل في نفسي؟، ولماذا استحضرت كل هذه الذكريات الآن، ولماذا لم أستحضر مثلها عندما توفي صديقي (مصطفى) غرقا في مياه النيل؟، إن مصطفى لم يسيء إليّ مرة واحدة، كانت ابتسامته اللطيفة تتم عن نفس صافية راضية، ورغم أنني لم أشهد جنازته . لكنني على يقين من أنه سيلتمس العذر لي ألف مرة كما عودني، لقد بكيت على مصطفى أكثر مما بكيت على عمي، لأنه كان يحبني بصدق، كان يشاركني نجاحاتي بلهفة من يشعر معي بطعم النجاح، كنت أرى الفرحة في أعين أبنائه عندما يروني قادما من بعيد، فيزداد يقيني أنه أخبرهم بأنني كنت أساعده في حل الواجبات المدرسية، لأنه لم يكن يصدق أنني وقفت مكانه في صفوف الذين لم يتمكنوا من أداء الواجبات في حصة (اللغة العربية)، وإصراري على إعطائه كراسة واجباتي

لعلمي بمرضه، واستعدادي لتلقي العقاب مكانه، بالطبع لم يحدث هذا العقاب، لأن الأستاذ تغاضى عن ضرب الطلاب إكراما لي، لم أكذب كما عاهدت أبي، لقد سألني هل صنعت الواجب ؟ فأجبت : نعم، وسألني : أين كراسة الواجبات ؟، فأجبت: ليست معي الآن .

لقد صنعت ذلك من أجله لأنه كان يستحق، أما الآن فكيف سأقف بعد قليل بين يدي المولى عز وجل لأدعو لصديقي الذي آلمني كثيرا من حيث لا يشعر ؟ دخل الشباب بالجنابة إلى الساحة الكبيرة التي تسع مئات المصلين، وأصبح صديقي على مقربة مني، وأعلم أنه في أمس الحاجة إلى الدعاء، وكل ما أخشاه ألا ينطلق لساني بالدعاء له كما يجود للذين لا أعرفهم، ولا تربطني بهم صلة قرابة، لقد وقفت للصلاة عليه في الساحة، تنفيذا لأمر الأجهزة المعنية، حتى ينقشع هذا الفيروس اللعين، وتزول الغمة، وهو الآن بين يدي ربه، ولا بد أن أدعو له حتى يقيض الله من يدعولي، إن عليّ أن أستحضر صورة طفله الصغير الذي أتم عامه الأول، وأبكي على مستقبله

الغامض الذي ينتظره، أو أبكي على مئات المسلمين الذين أصابهم الفيروس القاتل بمنأى عن أهلهم، أو أبكي على ما فرطت في جنب الله، إن أسباب البكاء كثيرة الآن ... الله أكبر.

خلف الستار

(لا تعباً بكلامهم، إنهم يظنونني لا أهتم بأحد، وهذا أمر لم يدر في ذهني أصلاً، ومن يستطيع الاهتمام بأربعة آلاف نفس في وقت واحد، كل ما يشغلني ألا أكون تافهاً، هذا ما أوصاني به أبي قبل أن يلقى الله وهو على فراش الموت)

أرسل لي هذه الرسالة عبر بريدي الخاص فأسكتني، لم أستطع أن أرد عليه بعدها، كنت مثلهم أحياناً أظنه متكبراً، لكنه صفعني بهذه الكلمة، فبدأت أعيد النظر في كل الأفعال التي كنت أفعلها، والمحادثات التي كنت أنفق فيها وقتاً طويلاً من الليل، وسياسة المداينة التي كانت تضطرنني إلى إعطاء كل شخص فوق ما يستحق، كل ذلك كان يمر في رأسي مثلما تمرّ مشاهد السينما، أشاهد منها ما أنا في حاجة إليه غير عابئ بترتيب الحوادث أو أسماء الشخصيات، ودون جدوى أخذت أقلب بريدي بعد منتصف الليل بحثاً

عن رسائل جديدة منه، فانتابتي حالة لا أستطيع وصفها وأنا أشاهد عددا من الرسائل التي تسيل لوعة وحزنا، وهي لفتاة لم يمض شهر على دخولها قائمة أصدقائه، إنها زميلة أختي، وأنا أعلم عن سلوكها ما لم يعلمه هو، لكن عدد أصدقائه قد تجاوزوا الأربعة آلاف، والفتيات من بين هذا العدد لا تمثلن إلا واحدا في المئة من هذا العدد .

إنني لا زلت أذكر يوم حدثتني عن فرحتها عندما قبل صداقتها، وكانت تظن أنه قد خصها بمنحة عظيمة حين قرر ذلك، لكن شهرا قد مرّ على هذه الصداقة دون أن يمرّ على منشور من منشوراتها ولو بالإعجاب، وبالطبع هي لم تستطع المرور على أي من منشوراته الفلسفية، لأنها ترى نفسها أقل من أن تفعل ذلك، ومن ثم أرسلت تسأل عن حاله، فأدهشتني قسوتها في التعامل عليه وهي لم تره أو تحدّثه أبدا، وأنا واثق كل الثقة أن كل الذي تسرده لم يفسر على وجهه الصحيح، لأنني دائما ما أقول له (إنه عدو المرأة، ودائما ما يقسو

عليها بلا شفقة، بعد أن بلغ الخامسة والثلاثين دون ارتباط) .

مر الحوار سريعا، وهدأت الفتاة قليلا ثم انقلبت الثورة استعطافا ومسكنة، وكأن الفتاة تبكي من وراء حجاب، ولم أكن بالطبع أدري سر هذه الثورة ؟ ولم انقطعت الرسائل فجأة وكأن الفتاة تفكر في أمر تتردد في إخباري به ؟ ثم كتبت :

(هل تعلم الأستاذ المحترم حذفني من قائمة أصدقائه؟)

تعجبت قليلا من قولها، وتعمدت ألا أطيل النظر إلى سؤالها العجيب، كانت رسائلها تتوالى مستتكة ونادمة وحزينة وصادمة، بينما كنت أحاول البحث عن صفحته صديقي دون جدوى، رجعت إلى الرسائل وقرأت قولها :

(كل ساعة أبحث عن صفحته فلا تظهر لي، بينما أكدت لي صديقتي أن الصفحة تعمل عندها، فماذا فعلت له حتى يقوم بحظري ؟، هل كنت أشكل خطرا جاثما على صدره طيلة الشهر دون أن أشعر ؟)،

وسرعان ما تذكرت أنه حدث ذلك معي قبل عام، ولما عاتبته في هذا الأمر بين لي أنه يعتمد غلق صفحته في أوقات بعينها، لإنجاز أعمال الشركة التي يعمل بها.

كانت الفتاة ما تزال تدلي بشهادتها في حق صديقي، وكنت أطلع بشغف كل ما تقع عليه عيني من هذه الشهادات، حتى قرأت قولها : (أرسلت له رسالة مرة واحدة .. مرة واحدة قلت له السلام عليكم .. والله ما رد السلام إلى اليوم، بالتأكيد هو حر .. أنا أستاهل أكثر من ذلك، أيام كان يدرس لنا في الثانوية كان لا يمزح أبدا، أنا أعرف صرامته جيدا، كنت أتضحك أنا وزميلاتي فنقول لبعضنا : هذا رجل معقد .. لا يضحك للرغيف الساخن)

كنت مجرد قارئ جيد لرسائل الفتاة، لكن سخريتها أضحككتني، ولم أكن على يقين من ردة فعل صديقي إذا ما قدر له أن يقرأ مثل هذه الرسائل، فقررت الاتصال به في الحال، ولا تزال الفتاة منهمكة في رسائلها المتهكّمة،

فتهاذى إلى صوته الضعيف المشوب بالألم، وهو
يخبرنى أن ساعده الأيمن قد كسر فى حادث أليم قبل
أسبوعين، وما يزال مصرا على إخفاء الأمر، حتى لا
يقع فيما ينكره على الأصدقاء.

أين ذهبت؟

جلس إلى جانبي أو جلست إلى جانبه، لست أذكر على وجه اليقين من الذي جلس أولاً، كانت لحيته المرعبة، وملابسه الرثة تخلعان علي قلبي مزيداً من الخوف والقلق، إنه الأسبوع الثالث لي في الصف الثاني الإعدادي، وأنا في عطلة رسمية بسبب زحام المدينة في أسبوع الاحتفال بمولد السيد البدوي، لكنني اضطررت للخروج من أجل قضاء بعض الحاجات للبيت، حاولت تلمس مقعد آخر فلم أهتد إلى مكان خال في الأتوبيس، لأن المقاعد تفرغ وتمتلئ في غمضة عين .

وجدته يرتّب على كتفي، ويسألني عن تعليمي، عن قرّيتي، وأنا أجيب متأففاً، ولا أطيق أن أنظر في وجهه ولو لثوان، لكنني فوجئت به يطلب مني أن أستضيفه ليلة عندي، فكرت في أن أعطيه شيئاً مما معي من نقود، فمازال معي خمسون جنيهاً، مع خمسة أخرى وضعتها في جيب جلبابي، بعيداً عن المحفظة التي

يستقر بها هذا المبلغ، سأعطيه الخمسة جنيهات، وهو مبلغ كان يكفيني مصروفا لخمسة أيام، وسأخبر والدي أنني تصدقت بها على هذا الرجل، وأمري إلى الله، إن الرجل ما زال يسأل عن خصوصياتي وأنا أجيبه وقلبي يرتعد خوفا، خشية أن ينزل معي في المحطة القادمة .

ألح مرة أخرى في طلب النزول عندنا، فتهرت منه، وأنا أقول في نفسي، وماذا أقول لوالدي، ؟ رجل مسن أشفقت عليه فجئت به لبييت عندنا، وأنا لا أطيقه جالسا إلى جوارى ؟، كان عليّ أن أنتظر حتى يقف الأتوبيس، ثم أضع الخمسة جنيهات في يده وأنزل بسرعة، لاحظت أن سيدة عجوز تقف بجوارى، فقررت أن أضع الخمسة جنيهات بيد الرجل، ونزعت يدي بسرعة وأنا أقوم لأجلسها مكاني، وقلبي يخفق في سرعة عجيبة، والرجل يركز بصره باتجاهي، كان الأتوبيس يمهد للوقوف في المحطة وأنا أستعد للعدو، استعداد مشترك في ماراثون رياضي، وما إن توقف الأتوبيس حتى انطلقت كالسهم انطلاق من نجا من مطاردة مميتة .

فكرت كثيرا وأنا أحمل أغراضي أن أكتم الأمر عن والدي، فأنا أعرف سلفا ما عساه يقول لي، سيقول : لقد حذرتك مرارا ألا تكلم أحدا لا تعرفه، ولكن ماذا إذا سألني عن الخمسة جنيهاات ؟ سأقول : خطأ في ثمن الأغراض التي اشتريتها، وضعت يدي على المحفظة لأطمئن على المبلغ الذي بها، فلم أهتد إليها، فتشت كل الأكياس التي أحملها، فلم أعثر عليها، كنت أعود بخيالي لأتذكر آخر محل دخلته، فأجدني وضعتها في مكانها بجلبابي، إنني غير مستوعب لما حدث، فلم أدخل في زحام، ولم أخرج المحفظة مذ دخلت الأوتوبيس .. فأين ذهبت ؟

الضمير

كان الظلام دامسا بالخارج إلا ما كان من بصيص الضوء الذي ينبعث من لمبات بعض البيوت، وكشافات الغفر التي تجوب الشوارع بأمر الداخلية أشبه بعيني قط بري أسود في ظلام دامس، وكانت شبورة الصقيع قد بدأت تفرض حلولها على الأجواء، وتصنع سحابة دخانية يصعب على العين اختراقها، كانت أصوات ماكينات المياه التي يسير بها بعض الفلاحين قبيل الفجر تقضي على هدأة الليل، وبالطبع لا نستطيع أن نميز أصحابها إلا إذا كنا على بعد متر منهم، كان النسيم الرطب يتزاحم من أجل الدخول في رثتي، وكنت مسرورا بكل هذا، فالفرصة مواتية لأن أقول لصديقي ما أريد بعيدا عن ذلك الرجل الغضوب، وبعيدا عن الجموع المتربصة من الأهل، في انتظار كلمة نابية تقوم لها الدنيا ولا تقعد، والخاسر الوحيد هو صديقنا وأهل بيته، لقد خلد الكل إلى فراشه، ولم يبق إلا ضوء اللمبات التي

تتدلى من أعمدة الكهرباء، في انتظار تواشيح الفجر
التي تكسب الأجواء قداسة وسكينة .

إنها المرة الأولى الذي ينتابه فيها شعور قاتل بأن
نزوله لم يكن بردا وسلاما علينا، ولعله كان يستشعر
ذلك لكنه أجاد إخفاء مشاعره، لما يعلمه من حساسيتنا
المفرطة تجاه هذه العواطف الإنسانية، إن الإشكالية
تكمُن في أن أحدا لن يصرح له بالحقيقة حتى لو طلب
هو ذلك، لأنه لن يتقبلها قبولا حسنا، وسيظل في قرارة
نفسه ناقما علي من أخبره، نادما على المعاملة الحسنة
التي كان يعامله بها يوما ما، حين كان أحد المحبين
إلى نفسه وقلبه؟

لقد تسبب لصديقنا في وقعة بينه وبين أهله ؟،
مستغلا تقديرنا لرأيه، وأصر على أن يكون الطرف
الوسيط الوحيد في المشكلة، فماذا أفعل ؟، إن الرجل
يريد زوجته ويذوب شوقا إلى أولاده، والمرأة تحنّ إلى
مخدعها التي تركته قبل نصف عام، وأهل الزوجة قد
أكلت ألسنة الناس كل ما تبقى لديهم من حياء، لكنهم
مستمسكون بأمل أن يخلو الرجل إلى نفسه فيفكر في

زوجه وأولاده قبل أن يفكر في كلام الناس، لكنه يريد أن يظهر أمام أهله بمظهر الرجل الكامل، حتى لو وضع قلبه وعواطفه تحت مخدته التي يفيء إليها كل ليلة، لبيثها أشجانه .

تحسست طريقي إلى بيتي بأطراف البلدة، كان والدي قد أطفأ نور المدخل عندما يؤس من قدومي، وكان عليّ أن أصعد السلم دون أن يشعر أحد بوجودي، وكل ذلك قد تم ذلك بنجاح نتيجة حرصي في وضع قدمي على درجات السلم، وما إن وضعت رأسي على السرير حتى وجدتني سابحا في بحر لحي من التفكير العميق، التي ظلت أمواجه تتقاذفني حتى غلبنى النعاس، ووجدت والدي يوقظني كي أدرك الصلاة، كانت الديكة تصيح هي الأخرى على أسطح البيوت المجاورة، وصوت التواشيح الذي ينبعث من مكبرات الصوت يملا الدنيا رهبة وقداسة، وراحة نفسية تسري في جسدي بعد هذا الحوار الليلي الذي أخذت فيه الضوء الأخضر في أن أتدخل لحل المشكلة في سرية،

وكل أمني أن يمر النهار سريعاً ولا يشعر صديقنا بتدبيرنا الذي دبرناه خلسة .

لا أستطيع وصف الراحة النفسية التي كنت أشعرت بها في تلك الليلة ؟ ولا وصف الطاقة التي امتدت إلى أعضاء جسدي بعد يوم شاق من الأخذ والجذب ؟ ولا وصف كمية الأوكسجين الذي أخذ يجري في الأوردة بعد أن حلت المشكلة التي كان يمكن أن تحلّ قبل أن تبدأ؟

عرفت بعد ذلك أنه علم بذهابي للصلح، وحاول جاهد أن يصل إليّ قبل أن أصل إلى هناك، لكنني كنت قد دخلت البيت بالفعل، وما زالت تموج برأسي موجات من الأسئلة، فمتى يتيقن صديقنا بأن هناك من يستحق الاعتماد عليه ؟ ومتى يتيقن صديقي الطيب بأن ضمائر الخلق قد تغيرت ؟ وأن عليه ألا يحسن الظن إلا بخالقه ؟ وأن المعايير في القرية قد تغيرت بعد أن كانت مضرب الأمثال في الامتثال لكل ما هو فطري نبيل ؟

إعادة المحاولة

انتبهت أنها ما زالت تتحدث إليّ، وأنها بذلت جهودا مضنية من أجل الحصول على رقم هاتفي، إنها الوحيدة التي دق لها القلب أول ما عرف أنه كالبيت المظلم، ولا بد أن يضاء بنور الحب يوما ما، وهي نسمة الربيع العطرة التي مرت حاملة عبق الأنس العذري في ظهيرة صيف قانظ.

حاولت إطالة الحديث ما استطعت، فمن يضمن لي أن أخاطر فأهاتفها أو تهاتفني بعد كل هذه الفترة، لم تكن الحروف تطاوعني كما كانت تطاوعني من قبل، وبخاصة بعد أن أصابت شبكة الجوال هاتفي بالرعشة، فلم أعد أسمع إلا نبضا غير مفهوم، وأصوات أشبه بصوت أسلاك الكهرباء حين تعصف بها الريح في ليل الشتاء البارد، فاضطرت لقطع المكالمات .

لم أستطع تسجيل الرقم في هاتفي، إذ سرعان ما أعادت هي الاتصال، وبينما كنت في شوق متجدد لسماع صوتها الملائكي الذي يردد اسمي في رقة

ساحرة - أثنائي صوت شاب عشريني مهذب، فظننتها مكالمة جديدة، وعرفت أن الأمل الذي طرق أبواب لهفتي منذ قليل قد نفذ رصيده، وأن الشاب الذي يهاتفني لا يحمل من أمه إلا جينات وراثية للذوق والأدب كان يمكن أن شريكا فيها يوما ما، إنه ابنها الوحيد الذي أنجبته بعد خمس سنوات عن طريق الحقن المجهري، وهو اليوم طالب على أعتاب الشهادة الإعدادية، لا يفصله عنها إلا الفصل الدراسي الذي نحن فيه، وقد عرفت أمه أنني سأكون ضمن الطاقم الذي سيدرس له المواد في (السنتر) هذا الفصل، فقررت مهاتفتي.

خرج إلى الشارع ليهاتفني، من جواله الخاص، بعد أن فشلت الشبكة في تحقيق التواصل، كانت كلمة (عمو) التي أصبحت مكونا من مكونات حروفه كفيلة بأن ألغي كل الأسئلة التي قررت أن أختبره فيها، لكنني ظللت أسأل نفسي: وماذا بعد هذه المهاتفة الطويلة؟ ولماذا أصر على مهاتفتي والمدارس شبه خالية من الطلاب، وجداول الأساتذة تنفذ على الورق، لأن الطلاب لا يدخلون المدرسة إلا أياما معدودات، لم أفلح

في أخذ إجابات شافية هذه المرة بعد أن نفذ شحن البطارية، وظل الهاتف معطلا في حقبتي حتى عدت إلى البيت، تمهيدا لبداية يوم شاق من العمل في الدروس الخاصة بعد الغداء.

أطلت النظر في الجوال بعد أن سرى دفء البطارية في أوصاله، فوجدت عشر مكالمات فائتة من ثلاثة أرقام مختلفة لم أهتم بها، لأن المجموعة التي سأدرس لها كانت تستعد للدخول، وعليّ أن أتعرف على أسمائها في مدة لا تتجاوز الدقيقتين، كانت الوجوه مشرقة إلى مدى يبعث على التقاؤل، عشرة طلاب أنبهم ذلك الطالب الذي ألمح ابتسامته من خلال عينيه وهو يقبل عليّ مرحبا :

- أنا الذي كلمت حضرتك في الصباح أنا و(ماما).

بدأت ملامح الصورة تتضح أمام عيني وهو يحاول نزع كمامته، يااه ..، حقا نفس الملامح القديمة التي ورثها عن والدته، ليت كل الذين لهم في قلبي مكانة يتركون معي ذكرى طيبة مثلما فعل هذا الطالب.

أخذت أفكر في ابتسامته البريئة التي ملأت على الدنيا وكأنني أخيرا قد وجدت أخا لابنتي الوحيدة، أحسست وكأن هناك واجبا تجاهه ولا بد أن أقوم به، هل تكفي صورة من المذكرات الخاصة التي أعدها للطلاب في العام القادم؟ هل أتوسط في تخفيض أجر (السنتر) رغم يقيني بأن دخل الأسرة يفوق كل الطلاب الذين يزاملونه؟ ... لم يعطني جرس الجوال فرصة طويلة للتفكير... فهذه المرة الثالثة التي يدق فيها الهاتف من رقم مجهول، لكن كلمة (مجهول) سرعان ما تلاشت كما يتلاشى الضباب أمام أشعة الشمس، إنها هي .. نعم هي، ولكن ما سبب الاتصال المفاجئ؟ إن ابنها لم يأخذ إلا حصة واحدة، لقد أشعني صوتها بالقلق .. بدأ الكلام سريعا ومتواليا وكأنه أعد مسبقا، لا .. لا إنني لم أركز .. أنا متأكد .. فبعد أن أخبرتي أن وزير التعليم قد حسم النتيجة بالنجاح في هذا الفصل الدراسي دون اختبار، نتيجة الظروف التي يمر بها العالم . لم أدر كيف سارت المكالمة حتى انتهى شحن جوالي، ولم أسأل نفسي متى سيمكنها إعادة المحاولة؟.

الفهرس

٨٧	كلمتين وبس	٣	مقدمة
٩٧	الحظيرة	٧	العدو الصامت
١٠٢	ذهب الليل	١٣	كلمة حمدي
١٠٦	الرباط	١٧	الستيني المتصابي
١١٠	صلاة الغائب	٢٢	الضيف الضاحك
١١٤	رائحة الحب	٢٦	عشرة جنيهات
١١٩	رائحة الموت	٣٢	مثل الطيور
١٢٣	خلف الستار	٣٦	سناء
١٢٨	أين ذهبت؟	٤١	الرسالة الرابعة
١٣١	الضمير	٤٩	رائحة الخوف
١٣٥	إعادة المحاولة	٧٠	الطريق
١٣٩	الفهرس	٧٧	تحت الشجر
		٨٣	الوجه الآخر

كتب المؤلف

- ❖ قراءات في الشعر العربي الحديث . (دار الأديب)
- ❖ المصطلح النقدي قضايا وأبعاد M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ دراسات في شعر السيرة النبوية M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ شعر الشابي بين التقليد والتجديد M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ شاطئ السلوان . (ديوان شعر). دار النابغة للنشر والتوزيع.
- ❖ رحي الذكري . (ديوان شعر). دار النابغة للنشر والتوزيع.
- ❖ فصل السكون . (ديوان شعر). دار النابغة للنشر والتوزيع.
- ❖ دفء الحنين . (ديوان شعر). دار الأديب للنشر والتوزيع.
- ❖ العبور الأخير . (ديوان شعر). المؤسسة العربية للعلوم والثقافة.
- ❖ سحابة صيف . (مقالات أدبية). دار النابغة للنشر والتوزيع.
- ❖ ابن الكاتب . (سيرة روائية). المؤسسة العربية للعلوم والثقافة.
- ❖ ابن الريف . (سيرة روائية). دار النابغة للنشر والتوزيع.
- ❖ لون الظل . (م. قصصية). المؤسسة العربية للعلوم والثقافة.
- ❖ أزمة الكاتب . (مقالات أدبية) M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ على شفة العبور . (ديوان) M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ بريد الشوق . (ديوان) M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ خاتم سليمان . (رواية) M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ رائحة الخوف (مجموعة قصصية) M. M. E. A. D ودار فنون.
- ❖ ابن الجامعة (سيرة روائية) M. M. E. A. D ودار فنون.

البريد الإلكتروني : ahmadbadrann@gmail.com

الهاتف : ٠١٢٨١٨٦٧٧٥٩ - ٠١٠٣٣٩٥٠٠٣٩